الحركة العربية القومية
في مائة عام
1982 - 1875

إشراف وتحرير

ناجي علّوش

إبراهيم ابراش
أحمد الجباعي
الياس سحاب
امين اسكندر
انطوان داغر
تركي علي الربيعو
خيرية قاسمية
ذوقان قرقوط
سهيلة الريماوي
سي ارنست دون
شبلي العيسمي
شفيق السامرائي
عبد الله الجيزاني
فهمية شرف الدين
محمد جعفر الحيالي
مصطفى بلاوني
ناجي علّوش
نجاح محمد
نديم البيطار
هاني فارس

الحركة العربية القومية

في مائة عام

الحركة العربية القومية
في مائة عام
1982 - 1875

إشراف وتحرير

ناجي علوش

إبراهيم ابراش
أحمد الجباعي
الياس سحاب
امين اسكندر
انطوان داغر
تركي علي الربيعو
خيرية قاسمية
ذوقان قرقوط
سهيلة الريماوي
سي ارنست دون
شبلي العيسمي
شفيق السامرائي
عبد الله الجيزاني
فهمية شرف الدين
محمد جعفر الحيالي
مصطفى بلاوني
ناجي علّوش
نجاح محمد
نديم البيطار
هاني فارس

حقوق الطبع محفوظة لدار الشروق

دار الشروق
1997

■ إشراف وتحرير ناجي علوش (الحركة العربية القومية في مائة عام)

■ الطبعة العربية:

الاصدار الاول ١٩٩٧

الناشر

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف: ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس: ٦١٠٠٦٥

ص.ب ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠ عمان - الأردن

التوزيع في فلسطين

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

رام الله . المنارة . الشارع الرئيسي هاتف: ٩٩٨٥٩٧٨

الصف والاخراج وتصميم الغلاف

■ الشروق للاعلان والتسويق

هاتف: ٦١٨١٩٠ فاكس: ٦١٠٠٦٥ عمان - الأردن.

■ رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٩٧/٢/١٧٤)

رقم التصنيف: ٣٢٠ر٠٥٤٩٥٦

المؤلف ومن هو في حكمه: إشراف وتحرير ناجي علوش

عنوان المصنف: الحركة العربية القومية في مائة عام

الموضوع الرئيسي: ١- العلوم الاجتماعية

٢- القومية العربية

رقم الايداع: (١٩٩٧/٢/١٧٤)

بيانات النشر: عمان- دار الشروق

* تم اعداد بيانات الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الآراء الواردة في هذه الدراسات تعبرّ عن وجهات نظر أصحابها

هذا الكتاب

يسعى هذا الكتاب، الى سد فراغ في المكتبة العربية، يتعلق بتطور الحركة العربية القومية.

ذلك أن الحركة العربية القومية، ورغم الدور الذي كان منتظراً منها، ورغم ما واجهته من عداء القوى المعادية، مازالت حتى الآن لا تجد الاهتمام الكافي من أبنائها ومؤيديها. ولذلك ، فان تاريخها لم ينل ما يستحق من الدراسة، ومفكريها مازالوا غير مدروسين جيداً، وقضاياها مازالت غير مطروحة طرحاً علمياً ومنهجياً.

واذا راجعنا ماصدر من كتب عن تاريخ الحركة القومية، وعن قضاياها ومفكريها، وجدناه قليلاً وغير كاف. هذا بالاضافة الى أن ماصدر في حينه، اختفى من واجهات المكتبات، ولم يحتفظ به فيّ كثير من المكتبات العامة. ويجد الدارس صعوبة في الحصول على المراجع الأساسية، في تاريخ الحركة القومية.

ولذلك خططنا لاصدار هذا الكتاب، ليسد بعض النقص الحاصل، وليضيف جديداً في المعلومات والأسلوب،حيث نستطيع.

وهذا الذي دعانا إلى إشراك اكبر عدد من الباحثين في انجاز الكتاب، لتغطية أوسع مساحة ممكنة، ولتوظيف معارف وخبرات عديدة.

ثم إننا ، وعندما قررنا اصدار الكتاب، درسنا ما حوته الكتب التي صدرت، وما لم تحوه، ووجدنا أن كل الكتب تناولت التطور العام لتاريخ الحركة القومية بأساليب مختلفة وان كانت عموماً غير كافية. ولكنها لم تتناول الأحزاب والشخصيات تناولاً خاصاً.

ونتج عن ذلك أننا رأينا ان اي كتاب جديد، يجب ان يتناول الأحزاب الأساسية والشخصيات الأساسية. فوضعنا ذلك في جدول أعمالنا، ونحن نخطط لصدور الكتاب.ورأينا أن يتضمن كل قسم من اقسام الكتاب تغطية مرحلة تاريخية، بما يعنيه ذلك ، من تناول تطورات المرحلة، وأبرز حزب فيها، أو واحد من أحزابها البارزة ، وشخصية من الشخصيات البارزة.

وادى ذلك الى آن نختار في كل مرحلة حزباً وشخصية على الأقل، لا لأننا أردنا هذا الحزب دون غيره، أو هذه الشخصية دون غيرها، ولكن لأننا طلبنا مثلاً دراستين عن

حزبين ، فلم نحصل إلا على واحدة، وكذلك بالنسبة للشخصيات.

ورغم النقص الذي حصل، فان الكتاب، يضم دراسات عن الأحزاب والحركات التالية :-

١-حزب اللامركزية الادارية العثماني.

٢-عصبة العمل القومي.

٣-حزب الاستقلال

٤-حزب البعث العربي الاشتراكي.

٥- حركة القوميين العرب.

٦- الناصرية.

كما أنه يضم دراسات عن الشخصيات التالية:

١- د. صلاح الدين القاسمي أبرز رواد الحركة العربية القومية.

٢-أسعد داغر.

٣- ساطع الحصري.

٤-قسطنطين زريق.

٥- ياسين الحافظ.

وكان بودنا لو استطعنا الحصول على دراسة لحزب البعث ، تتناول تاريخه ودوره إلا اننا لم نستطع، فاكتفينا بالمادة التي حصلنا عليها.

كما أننا حاولنا أن نقدم كل مرحلة من المراحل بدراسة عن المرحلة، كما فعلنا في القسمين الأول والثاني، وحيث لم يتوافر ذلك أعددنا مقدمات موجزة.

ولهذا جاء الكتاب ، كما جاء ، يقدم أبرز تطورات الحركة العربية القومية، وأبرز احزابها وشخصياتها ، في كتاب واحد.

ونأمل ان يسعفنا الوقت والظروف على تقديم إسهامات اخرى، تسد ما لم نستطع توفيره في هذا الكتاب.

كما نأمل أن يعطي المعنيون بتاريخ الحركة القومية المزيد من الوقت والجهد لكتابة تاريخها ، والتعريف بأحزابها وقواها وشخصياتها وقضاياها.

ناجي علوش

القسم الأول

الحركة العربية القومية:
مرحلة النشوء والتأسيس
١٨٧٥-١٩١٨

١- مدخل

٢- **الفصل الأول**

■ أصول القومية العربية . **د. سي ارنست دون.**

٣- **الفصل الثاني**

■ في نشأة الحركة العربية القومية. **د. ذوقان قرقوط.**

٤- **الفصل الثالث**

■ حزب اللامركزية الادارية العثماني . **د.سهيلة الريماوي.**

٥- **الفصل الرابع**

■ صلاح الدين القاسمي والمفهوم الحديث للقومية .**أ. ناجي علوش.**

مدخل

يضم هذا القسم الأول من الكتاب أربع دراسات، تتناول الأولى منها أصول القومية العربية. والدراسة للأستاذ سي ارنست دون ، تناول فيها أطروحات جورج انطونيوس ومن حذا حذوها في اعتبار الحركة العربية القومية نتاج المدارس التبشيرية، لينقضها من أساسها. وهي دراسة جديدة وجادة، تستحق أن تدرس ، لأنها تؤسس لاعادة نظر كاملة في الحركة العربية القومية. وتتناول الدراسة الثانية التي كتبها د. ذوقان قرقوط علاقة العرب بالامبراطورية العثمانية، وهو يرى ان الاسلام كان جامع العرب بالسلطنة، وأن النزعة الطورانية، كانت نتيجة استيلاء حزب الاتحاد والترقي على السلطة.

ثم تناول محاولات الاختراق الأوروبية، بدءاً من لبنان، ليصل الى المؤتمر العربي في باريس، والحرب العالمية الأولى، وانخداع العرب بوعود الانجليز، ومن ثم انهيار هذه الوعود. ويلقي د. قرقوط أضواء على علاقة مصر بالحركة القومية، من حملة بونابرت الى العشرينيات.

وتتناول د. سهيلة الريماوي حزب اللامركزية الادارية العثماني بدراسة موثقة شاملة.

ويتناول أ. ناجي علوش د. صلاح الدين القاسمي صاحب المفهوم الحديث عن القومية عامة، والقومية العربية خاصة.

« المحرر»

الفصل الرابع

صلاح الدين القاسمي . ١٨٨٧-١٩١٦
والمفهوم الحديث للقومية

أ. ناجي علوش

مدخل

كانت سورية حتى سنة ١٩١٧ ولاية عثمانية. وكانت ترزح، كغيرها، تحت الحكم العثماني من جهة، وتتعرض لاخطار المطامع الاجنبية من جهة اخرى. وكان النظام العثماني استبدادياً متخلفاً، ينهب الولايات التابعة له، ويكشف عن عجزه وتخلفه أمام القوى الامبريالية الطامعة. وكانت البنية الاقتصادية – الاجتماعية متخلفة. ولذلك وأمام الاخطار الداهمة، لجأ السلاطين الى اجراء اصلاحات، كان منها خط كلخانة سنة ١٨٣٩، وخط التنظيمات الخيرية سنة ١٨٥٦، وخط الاصلاحات والتنظيمات الجديدة سنة ١٨٧٤. ونصت هذه التنظيمات على ضرورة :«تأمين حقوق الأهالي، والتزام العدل في معاملة جميع الرعايا بدون استثناء، وتنظيم إدارة الحكومة....». وتضمنت هذه الاجراءات الفصل بين السلطتين القضائية والتنفيذية، وتنظيم القضاء، ووضع النظم لمواجهة مشكلة سوء تحصيل الايرادات، والغاء ريع العشر الذي كان قد ضم الى الايرادات العشرية، والغاء السخرية والمضايقات والازعاجات واساءة استخدام السلطة. كما تضمنت الاجراءات الوعد بتأمين الرعايا على أموالهم وأنفسهم وأسرارهم وأعراضهم. ثم ما لبث الدستور أن اعلن سنة ١٨٧٦.

ومع كل هذه الاجراءات، كان التغلغل الاجنبي يزداد في الامبراطورية. ففي سنة ١٨٦٣ أصدرت السلطة نظام البنك العثماني، ومنحت مؤسسيه من الانكليز والفرنسيين واليهود امتيازاً، وتعهدت بحمايته والمحافظة علي جميع امتيازاته. وقد بلغ رأسماله، عند تأسيسه، ٧ر٢مليون جنيه انكليزي. وسنة ١٨٨٧ كان في دمشق قناصل أو نواب قناصل لكل من انكلترا وفرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وامريكا وهولانده واليونان والبرتغال. وكان لهؤلاء القناصل دور سياسي مهم. وكان صلح باريس سنة ١٨٥٦، بعد حرب القرم، فاتحة عهد جديد من التغلغل الأجنبي، اذ فرضت على السلطنة بموجب ذلك الصلح

التزامات دولية ،تعهدت تركيا بموجبها ، بمنح امتيازات للرأسماليين الأجانب ، من أجل مد السكك الحديدية، وإنشاء البنوك، واستغلال الثروات وشراء الاراضي ....الخ.

وعقدت السلطنة قرضاً خارجياً سنة ١٨٥٤، بخمسة وسبعين مليون فرنك، تسلمت منه ستين فقط. وخصصت الجزية التي كانت تتقاضاها من مصر ضماناً له، وعقدت قرضاً ثانياً، سنة ١٨٥٥، بمبلغ مائة وخمسة وعشرين مليون فرنك، خصصت جمارك ازمير وسورية ضماناً له. وتلاه قرض ثالث، سنة ١٨٥٨، بمبلغ مماثل ، خصصت جمارك استانبول ضماناً له. وتوالت القروض مابين السنوات ١٨٦٠-١٨٧٤، حتى بلغت أحد عشر قرضاً . وبلغت قيمة القروض الاسمية خمسة آلاف وثلاثماية مليون. وكان البنك العثماني الذي نشأ انكليزياً سنة ١٨٥٦، تحول الى بنك انكليزي - فرنسي سنة ١٨٦٣، يلعب دوراً كبيراً في العمليات المالية الداخلية والخارجية. وكان من نتيجة هذا كله، أن أعلن افلاس السلطنة سنة ١٨٧٥، لأن المداخيل كانت ثلاثماية وثمانين مليون فرنك، بينما كانت أقساط القروض المستعجلة ثلاثماية مليون فرنك.

وفي هذا الوقت كان التعليم يتقدم، إذ أن الدولة أنشأت مع حركة الاصلاحات،عدداً من المدارس الرشدية العسكرية. كما ان مدحت باشا(١٨٧٨-١٨٨٠) عمل على تطوير التعليم. ولما كانت المدارس التبشيرية تنتشر، فقد حرص رجال الدين المتنورون والتجار على مواجهة الموجة بتطوير التعليم الوطني، ولذلك أنشأوا «جمعية المقاصد الاسلامية» التي مالبثت ان انشأت عدداً من الفروع لها.

أخذت السلطنة تصير شيئاً فشيئاً جزءاً من السوق الرأسمالية. وكان الصراع الالماني - الفرنسي -البريطاني على أشده. كانت القيصرية مع تفكيك أوصال السلطنة. وكانت بريطانيا مع بقائها ضعيفة، ومساندتها ضد المطامع الروسية للتغلغل فيها. وكانت فرنسا مع محمد علي بادئ ذي بدء ، ثم اتفقت مع بريطانيا سنة ١٨٤٠. وكانت المانيا مع مساندة السلطنة وتطويرها ، ونيل امتيازات فيها. وكان من نتيجة هذا كله، ان دعيت بعثة عسكرية المانية الى السلطنة سنة ١٨٨٢. وحصل رأس المال الالماني سنة ١٨٨٨ على امتياز سكة حديد بغداد .وقام غليوم الثاني قيصر المانيا برحلتين الى الشرق كانت الثانية سنة ١٨٩٨.

واستطاعت فرنسا أن تمد نفوذها في سورية ولبنان ، فاحتكرت إنتاج الحرير والتبغ. ومن أجل ذلك أنشأ الفرنسيون ميناءً في بيروت ، ومدوا خطوط سكك الحديد: يافا - القدس سنة ١٨٨٨: دمشق - المزيريب سنة ١٨٩٠؛ بيروت - دمشق، سنة ١٨٩١؛ طرابلس - حمص، سنة ١٩١١ . كما انشأوا طرق دمشق -بيروت سنة ١٨٥٧؛وحمص - طرابلس - حمص، ودمشق - حوران وحماة - اللاذقية . أما بريطانيا فقد اتجهت الى

العراق ، والى فلسطين. وأصبح العراق سوقاً للمنتجات البريطانية وصادراته الزراعية في قبضة الانكليز.

أعلن سنة ١٨٧٩ إفلاس جديد ، فضغطت الدول الكبرى من اجل ضمان ديون مواطنيها. وهكذا صدر مرسوم شهر محرم سنة ١٨٨١، الذي وحد الديون بمبلغ ٢ر٤ مليار فرنك ، وأنشئت ادارة خاصة اصبحت هي السلطة الحقيقية في السلطنة.

كانت الأزمة تتفاقم ، والسخط يزداد. ولذلك حدث عدد من الانفجارات الشعبية في جبل الدروز سنة ١٨٨٦، وسنة ١٨٩٦، وفي حلب سنة ١٨٩٥، وفي بيروت سنة ١٩٠٣. وكانت الجمعيات قد بدأت تتكون منذ سنة ١٨٧٥. وأخذ الصراع الفكري يتنامى في اتجاهين : أولهما، الصراع بين القديم والجديد، بين الخرافة والشعوذة والعلم التقليدي الاسلامي، وثانيهما الصراع بين التراث والأفكار البرجوازية الحديثة. ومع ان النزعة التوفيقية هي التي سادت كل الاتجاهات تقريباً من بطرس البستاني الى محمد عبده، ومن أديب اسحاق الى عبد الغني العريسي، فان حركة هذا الصراع أسست الفكر العربي.

كان تجديد الفكر الديني يشغل شخصيات متنورة مثل محمد عبده،وعبد القادر المغربي، وجمال الدين القاسمي، وادخال الفكر الغربي يشغل شخصيات أخرى مثل بطرس البستاني وأديب إسحاق وفرح انطون والشميل . وكان الجميع مع اعادة بناء الوطن بأشكال مختلفة، كما حصل خلال انتفاضة مصر في عهد عرابي .ولكنهم كانوا يقاومون فساد السلطنة، والاحتلال الاجنبي بمفاهيم مختلفة(١).

ميلاد القاسمي:

ولد في هذه الاثناء صلاح الدين القاسمي، كان ذلك سنة ١٨٨٧م/ ١٣٠٥هـ. وكان والده محمد سعيد بن قاسم المعروف بالحلاق، الذي تسلسل نسبه هكذا :بن صالح بن اسماعيل بن أبي بكر المعروف بالقاسمي . ولد محمد سعيد سنة ١٨٤٣، أي بعد انتهاء حكم محمد علي باشا في سورية بقليل . واشتغل مطلع حياته بالتجارة، فكان له دكان في «العصرونية» ظاهر الجامع الأموي ، تباع فيه الادوات المنزلية. مالبث ان ترك التجارة، وتفرغ للعلم «يقرأ ويقرىء ويكتب». و«كان أبوه فقيه الشام، وصالحها في عصره». خلف محمد سعيد أربعة اولاد وبنتاً. والأولاد هم : جمال الدين ومحمد عيد وقاسم وصلاح. وتوفي في الثالث والعشرين من شباط / فبراير سنة ١٩٠٠، وكان صلاح لا يتجاوز الثالثة عشرة. وقد أعلن علماء دمشق الحداد ثلاث ليالٍ عند وفاته، وعطلوا دروسهم العامة في الجامع الاموي.

كان الوالد بعيداً عن التعصب في المسائل الخلافية «أخذ بما صح، ودعا للحق مع اعتدال في المشرب». وقد كان، كما يصفه ابنه جمال الدين :«فقيهاً غلب عليه الأدب ومزاج الادباء، فجانب خشونة المشايخ، وتنكب طريقهم في الدعوة، فلم يتشبث بما اعتاص من أساليبهم، وما جفّ من طرائقهم، فكانت مجالسه منوعة الأحاديث، كما كانت دروسه كثيرة الاستطراد». وترك الوالد المؤلفات التالية:

١-قاموس الصناعات الشامية، وقد سماه بدائع الغرف في الصناعات والحرف، حققه وقدم له ظافر القاسمي (جزآن).

٢- الطالع السعيد في ديوان الوالد محمد سعيد - ديوان شعره.

٣- الثغر الباسم بترجمة العلامة الشيخ قاسم.

٤- سفينة الفرج فيما ثبت ودبّ ودرج.

٥-تنقيح حوادث دمشق اليومية، نشر سنة ١٩٥٩، تحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم.

وقد قادت وفاة الوالد إلى أن يعيش صلاح في كنف أخيه جمال الدين الذي ولد في ١٧ ايلول / سبتمبر ١٨٦٦، والذي كان يكبره بحوالي واحد وعشرين عاماً. وكان جمال رجلاً فاضلاً عاملاً، أخذ معارفه الأولى على الطريقة المألوفة في عصره، فأكب على القراءة في مكتبته الخاصة التي أنشأها جده وأبوه، ووسع دائرة معارفه، متابعاً ما استطاع ثقافة العصر. وقد حرص أن يكون اطلاعه واسعاً، ومعارفه متعددة.

كتب جمال الدين في مواضيع متعددة منها: التفسير والحديث والأصول، تاريخ دمشق. رسالة في الجن، كتيب في الشاي والقهوة والدخان، مقالة في القلب، وكتاب حول دلائل التوحيد، وكتاب ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير، ومنها في الزراعة والادب .....الخ. وكان جمال الدين من رجال الدين المتنورين، فاضطهد بتهمة الاجتهاد، وكان وطنياً، لوحق بسبب نشاطه، وقد دوهم بيته، وفتشت مكتبته في ١١ آذار / مارس ١٩٠٨، وحجز بعضها حتى ١٩ ايار / مايو ١٩٠٨. وكان ان استدعي لادعاء الحق العام عليه بتهمة «أن جمعية النهضة السورية لم تنشأ إلا بتشويقه، هو والشيخ عبد الرزاق البيطار وانهما من أركانها، وإنها فرع لجمعيات في البلاد كاليمن ونجد، وانها تطلب الاستقلال الاداري، وتريد تشويش الامور الداخلية بطلب حكومة عربية». وقد توفي جمال الدين في ١٨نيسان/ابريل ١٩١٤(٢).

تكفل جمال الدين أخاه. كان الصبي بادي الذكاء، فتعهده وأرسله الى المدارس الرسمية ليدرس التركية والفارسية والفرنسية والمعارف العامة. وكان الى جانب ذلك يتلقى الدروس الدينية واللغوية في بيت أخيه جمال الدين القاسمي. ولما أنهى الدراسة الثانوية، أدخل الى «المدرسة الطبية»، ونال شهادتها سنة ١٩١٤.

لقد اهتم أخوه جمال الدين بتربيته، فدرّسه أمهات الكتب التي لم يدرسها في المدرسة، وحرره من المناهج الدينية واللغوية الجامدة، كما أتاح له فرصة اللقاء مع الأحرار الذين كان بيته ندوة لهم. وهكذا اطلع على المعارف العصرية، ودرس الدين واللغة، كما تعرف بالمذاهب السياسية المختلفة. ولما كان اخوه: «إماماً بكل مافي الكلمة من المعاني: إماماً في المسجد الجامع، وإماماً في التأليف»(٣)، فقد ترك ذلك أثره الكبير في نفسه. وشجعه أخوه جمال الدين على تعلم الكتابة، نثراً وشعراً. ولذلك أنشأ مجلة نقطة الأدب، وهو طالب في الثانوية، وسنه لم يبلغ خمسة عشر عاماً. ثم أخذ يكتب في الأمور المختلفة التي تهم العرب والمسلمين.

والتقى صلاح الدين مع رفاق له، حملوا راية القضية التي يحملها، فأنشأوا ما أسموه«جمعية النهضة العربية»، سنة ١٩٠٦م/ ١٣٢٤هـ. ويروي صلاح الدين كيف انشئت الجمعية في كلمة القاها فيما بعد جاء فيها:«أربعة من الأصدقاء كانت تربط في أول الأمر قلوبهم بعضها ببعض رابطة صداقة حميمة، ثم مالبثوا أن أصبحت تجمعهم جمعية واحدة، والربطة الاولى لم يتغير شكلها، بل انقلبت بعد ذلك الى ما هو أمتن وأرصن.. أصبحوا مشتركين في المبادىء والاحساسات ... ينظرون بعين واحدة الى سماء واحدة.. وأفق واحد .. وكانت القبلة التي يولون شطرها هي السعي وراء سعادة الأمة العربية، وإحياء ذلك المجد العربي الباذخ الذي أسلم نفسه الأخير في أرض الأندلس، وذابت آخر قطرة من شمس تلك المدنية في مجاهل سمائها»(٤).

ويروي صلاح الدين بعد ذلك كيف انشئت الجمعية في القسطنطينية، وكيف اتصل به محب الدين الخطيب، وبلطفي الحفار، وطلب منهما الانضمام للجمعية، فوافقا، وأسسا لها فرعاً في دمشق، ثم اتحد الفرع والمركز في العطلة الصيفية. وانتخب صلاح الدين أمين سر لهذه الجمعية، وهو ابن تسعة عشر عاماً. صرف صلاح الدين جهوده على الجمعية، وخدمة برنامجها وأفكارها، عندما كانت سرية، قبل الدستور سنة ١٩٠٨ وبعده. كان يقدم المحاضرات في الجمعية، ويكتب المقالات، وبعض مقالاته ما زال يستحق الاهتمام حتى اليوم. ومن مقالاته التي تستحق الاهتمام اليوم: محاضرتان عن «جمعية النهضة العربية» ومقال عن القومية في الامم، وآخر عن «التعليم بالعربية»، وثالث عن «المسألة العربية ونشأتها». ومن مقالاته المهمة مقالته عن الخطر الصهيوني التي كتبها سنة ١٩١١، بعنوان «خطران أصفران»، يقصد الصهيونية والوباء الأصفر (الكوليرا)... وحين

خلع السلطان عبد الحميد ، أرسلت دمشق وفدها للتهنئة، وكان صلاح عضواً فيه، فكتب سلسلة من المقالات عن الرحلة.ثم انتقل صلاح الدين القاسمي الى الحجاز ، وعمل طبيباً هناك. ومن هناك كان يواصل ارسال مقالاته التي تتناول الجوانب السياسية والإجتماعية. أصيب سنة ١٩١٦ بخرّاج في الكبد ، وأجريت له عملية جراحية ففارق الحياة .وكان ابن تسعة وعشرين عاماً.

أهمية القاسمي:

وتنبع أهمية صلاح الدين القاسمي من حقيقتين :اولاهما :انه شارك مشاركة فعالة في تأسيس «جمعية النهضة العربية». وهي أول جمعية عربية ذات طابع قومي عربي مكتمل. وثانيتهما :أنه اسهم في بلورة نظرة عصرية لوجود الامة العربية، تتجاوز أفكار من سبقوه «مثل الكواكبي» ورضا وغيرهم، ممن كانوا يعتقدون ان نهضة العالم الاسلامي لاتكون إلا بعودة الخلافة للعرب، وعودة العرب الى ممارسة دورهم....

ونستطيع أن نقول إن صلاح الدين القاسمي تجاوز أيضاً ماطرحه نجيب عازوري الذي قصر كلامه عن «يقظة الامة العربية في آسية التركية»(٥). لكن من أين جاءت أفكار صلاح الدين ؟. هناك مصدران اساسيان:

الاول: الصراع الذي كان يتفاقم داخل الامبراطورية العثمانية بين شعوبها : العرب والارمن والبلقانيين والبلغار والصرب ....الخ ، وبين السلطة المركزية، التي كانت تسعى لأن تكون اكثر مركزية. وكانت هذه الشعوب تناضل من أجل استقلالها،بسبب نمو القوى المحلية، وزيادة آثار الافكار البرجوازية الاوروبية ، والتدخلات الاوروبية لتفسيخ الامبراطورية العثمانية، ونتيجة القمع والاضطهاد المتزايدين اللذين تمارسهما السلطة المركزية.

كانت السلطة المركزية تسعى لادخال إصلاحات على أجهزتها منذ سنة ١٨٣٩ خاصة، فسعت الى إدخال العلوم والصناعات ، لتستطيع مواجهة التطور الاوروبي السريع، والمحافظة على نفسها. وكان هذا يقود الى زيادة قدرتها على تشديد قبضتها على الشعوب الواقعة تحت حكمها .... وإلى محاولة الحاقها بها الحاقاً تاماً....

وكان يختلط بهذا الصراع الدائر داخل الامبراطورية ، والذي خاضه رجال أحرار، يمثلون الفكر البرجوازي، والذين كانوا يطالبون بالدستور والحرية، وتبني نتائج الثورة الديمقراطية الاوروبية. ولقد عمل هؤلاء من أجل استبدال بنية السلطة الدينية الاقطاعية بسلطة مقيدة، تحفظ للسلطة مكانتها ، ولكنها تلزم السلاطين بقوانين عصرية . ولقد أخذت هذه الحركة تنمو منذ العقد السابع من القرن الماضي، ومن رجالها مدحت باشا

المدعو أبو الدستور. وكانت هذه الحركة تعمل لنشر أفكار الحرية، وتدعو الى التجديد، وتبني المدارس العصرية، وتقاوم التحجر والجمود، في الفكر والسياسة.

الثاني: العلم الذي كان ينشره الاحتكاك مع الغرب، من خلال المدارس والكتب والارساليات والبعثات العلمية. ولقد سمح ضعف الامبراطورية من جهة، وبعض الانفتاح الذي حدث فيها من جهة أخرى، بانشاء عدد من المدارس التابعة للطوائف، او التجارية التي تقدم الفكر الغربي، وتدرس اللغات الغربية(٦). وكان أيضاً أن نشأت الصحف التي تنشر هذا الفكر. وفي هذا الجو تعرف الشباب العرب الذين يدرسون في بيروت او دمشق او الاستانة او باريس الى افكار جديدة، خارج اطار ثقافتهم التقليدية. ولهذا نشأ جيل جديد منذ اوائل القرن، يتجاوز أفكارالمصلحين المسلمين مثل الكواكبي، وغير المسلمين مثل أديب إسحق.

ان الجيل الاول: الافغاني، الكواكبي، اديب اسحق... الخ لم يبلور نظريته في الامة، لأن طبقات الأمة المختلفة لم تكن قد وعت اهمية الاستقلال والبناء القومي، اذ ان مصالحها كانت ما زالت مرتبطة بالامبراطورية، ولأن وعيها لم يكن قد اكتمل بعد...ولذلك طرح الرواد الاوائل فكرة تطوير الامبراطورية، وطالبوا بدور بارز للعرب فيها. وكانوا في ذلك يعبرون تعبيراً جنينياً عن وعي جديد ينشأ، نتيجة التطورات التي تحدث في الامبراطورية، وفي العلاقة السياسية والاقتصادية بين الاتراك وشعوب الامبراطورية الأخرى.

كان الاقطاع العربي والبرجوازية يريدان دوراً أكبر، لأنهما يريدان تنمية مصالحهما،و كانا يحسان بالمزيد من سيطرة السلطة المركزية. أما بعد ذلك، فقد كانت الأمور قد تطورت، وكانت البرجوازية في المدن العربية قد أنشأت علاقات مع البرجوازيات الاوروبية، وأحست بأن السيطرة العثمانية تعوق تطورها.... كما ان احتكاك المثقفين العرب بالغرب كان ينضج وعيهم السياسي. وهكذا كان الوضع يختلط :الصراع مع الاتراك، والصراع مع الغرب، وانتشار الفكر الغربي، وبعث التراث العربي (٧)، يقود الى مرحلة جديدة.

تبلور نظرية الأمة:

وكانت في هذا الجو كله نظرية الامة تختمر وتتبلور، وأخذت تعبر عن نفسها،فطرحها نجيب عازوري، كما طرحها بعده صلاح الدين القاسمي: تبلورت الفكرة في ماسمي «حلقة دمشق الصغيرة» المنبثقة من حلقة دمشق الكبيرة. وكانت حلقة دمشق الكبيرة قد تكونت

حول الشيخ المصلح طاهر الجزائري. وكانت هذه الحلقة ملتقى المصلحين والمفكرين والادباء الذين يتحدثون عن العرب ودورهم ولغتهم وتراثهم، عن أوضاعهم الراهنة، وعن امجادهم السابقة ، عن الاصلاح وضرورته وسبله. ولكن الحلقة الكبيرة كانت تضم الجيل الاول الذي تغلبت عليه الثقافة التقليدية، وإن كان بعض من رجاله قد تحرر من كثير من الحشو واللغو، وآمن بالعلم وضروراته، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي.

ويبدو ان الجيل الطالع كان يتعلم من جيل الرواد، وكان يأخذ منه الاهتمام بمستقبل العرب، والتحرر من الخرافات والجمود . وهناك معلومات تشير إلى أن حلقة دمشق الصغيرة تقرأ الكواكبي مثلاً(٨). ولكن الجيل الشاب كان ، بما يمثله من مطامح، وبما بلغه من ثقافة، يطمح إلى أن يكون شيئاً آخر. ولذلك، فإنه، وإن كان استمراراً للجيل السابق من جهة، فإنه كان تجاوزاً له من جهة اخرى.

رؤية صلاح الدين القومية:

ان حلقة دمشق الصغيرة انجبت « جمعية النهضة العربية»،وهذه الجمعية كانت تعبيراً عن مرحلة جديدة. كان محب الدين الخطيب لولب هذه الحركة . وكان زملاؤه من أبناء الوجاهات العربية المتجمعة في دمشق او بيروت أو الاستانة ، يعتقدون ان المهمة التي يتصدون لها تحتاج الى عمل طويل دؤوب منظم. وإذا كانوا قد طرحوا موضوعات الأمة العربية، وبلوروها من الناحية المبدئية، فإنهم اكتفوا سياسياً بطرح موضوع اللامركزية، وتدريس اللغة العربية (٩).وذلك أنهم كانوا يحسون بالحاجة الى بلورة الوعي القومي لدى الجماهير، كما انهم كانوا يعرفون الأخطار المحدقة بالسلطنة. وكانوا يعتبرون تفتيتها خدمة للمآرب الاستعمارية الاوروبية . ان جمعية النهضة العربية لم تدرس جيداً بعد، شأنها شأن كل الجمعيات العربية. لولا ما يلقيه الشهابي وصلاح الدين من أضواء حول تاريخها، ،لما عرف عنها إلاّ أقل من القليل .ونستطيع أن نوجز أفكار صلاح الدين حول القومية بما يلي:

١- ان القومية بنت الضرورات الاجتماعية ، ويكتبها بالفرنسية (Nationalism) وهي بالتالي ليست« بدعة هذا الجيل او ذاك القبيل» ، ومع انه لا يوضح مايعنيه ذلك تمامًا. إلا انه من الواضح انه يربط القومية «بالمنفعة والمصلحة» . وهو هنا أيضاً لا يحدد موضوع المصلحة «بأكثر من انها مصلحة الفرد والمجموع معاً».

٢- ان العصبية الدينية كان لها: «شأن يذكر يوم وجدت الأمم فيها مصلحتها ومنفعتها» .«أما اليوم، وقد صرنا الى زمن استحال فيه كل شيء – بعامل النشوء والارتقاء –فإن الأمم وجدت نفسها مضطرة لأن تلتف حول عصبية اخرى،

ونعني بها القومية»، لأنها رأتها «أجدى لبقائها، واجدر بارتقائها...» إلا انه لايرى القومية متناقضة مع الدين، فهي منفذ «لخدمة الانسانية والدين معاً».

٣- ان القومية«....كانت وما برحت من أعظم عوامل النهوض»، وتاريخ النهضات شاهد على ذلك ، «إذ اثبت لنا أن الأمم المتمدنة اليوم، لم تتمتع بالحياة الاجتماعية والسياسية، إلا عندما تشبعت نفوسها بفكرة القومية، وأنزلتها منزلة الاعتقاد الراسخ والايمان الصحيح، فمجدتها وضحت لها على مذابح الثورة بنفوس أبنائها، وأهرقت من أجلها دماءهم».

٤- ان القومية حديثة النشأة في «الامة العثمانية»، كما كانت «في الامم الغربية، وهي في بدء نهوضها» ... وقد «تنبهت في الآونة الاخيرة فكرة القومية أو الجنسية في مجموع الامة العثمانية تنبهاً شديداً ، فاهتزت لها اعصاب العناصر كافة من عربي وتركي ، ورومي وأرمني وكردي وألباني...».

٥- ان الذي يعادي فكرة القومية : «جاهل بحقائق التاريخ وسر تقدم الامم» ..«بدعوى أنها مدعاة لتفريق الكلمة...».

ويبدو ان موضوع وجود الامة العربية محسوم تماماً بالنسبة لصلاح الدين القاسمي. فهو لا يناقش الموضوع مناقشة الذي يثبت وجود الامة، كما فعل ساطع الحصري ،فيما بعد. ولا يحدد عوامل وجودها . إن الأمة موجودة ، والقومية من الضرورات الاجتماعية، ولاشيء اكثر من ذلك . انه يقول ، وهو يتحدث عن المسألة العربية :«...أن هذه المسألة لم تخلق من العدم... إنه لابد من عامل يكفيها ، حيث توفرت لها شروط الحياة والنمو منذ زمن بعيد»(١٠). وصلاح الدين يستخدم كلمة الأمة للدلالة على العرب، وبالمفهوم العصري،ويستخدم كلمة ،« الامة العثمانية »(١١) أيضاً. ثم ان مصطلح الامة العثمانية نادراً مايرد، الا انه على مايبدو من بعض آثار الماضي، لأن صلاح الدين يقرر وجود الامة العربية ، ويكرر كلمة مثل «سعادة الأمة العربية»(١٢)، و«أبناء الأمة العربية»(١٣). كما يتحدث عن المجد العربي، والعظمة العربية(١٤). ولكنه كان يتحدث أحيانا عن المشرق(١٥) ، ويذكره مرة « أن مصر شقيقة الشام...»(١٦)، وإن كان يتحدث عن المشرق بمعنى الشرق عامة. ويذكر «العربي السوري » مؤكداً إنه يتحدث عن كل أبناء الأمة العربية(١٧). أما دمشق فهي في رأيه :«...المدينة التي تتطاول إليها أنظار الأمة العربية، وهي قلب البلاد العربية وقاعدتها من القديم»(١٨).وصلاح الدين بعد ذلك كله ، لايرى حرجاً في أن تأخذه النعرة القومية، ويطالب بالاحتفاظ بها، مادام هو يسعى وراء الدفاع عن حقوق أمته. ويعتبر إن هذا هو «التمسك الصحيح بمبدأ القوميات في البلاد المتمدنة...». ولذلك يريد من العرب ان يكونوا عرباً اولاً وعثمانيين ثانياً(١٩)، ويهاجم دعاة الجامعة

الاسلامية العاملين مع حزب الاتحاد والترقي ، لأنهم يعملون من أجل تفريق«... الكلمة بين الامة العربية مسلميها ومسيحييها»(٢٠).وهو مع ذلك يرفض مهاجمة المنفلوطي للحضارة الغربية. لأنه يرى أن «من الحكمة ان يدعو القائم بالاصلاح الى قومية او وطنية ، لكن بدون أن يزدري مدنية الامم الاخرى الناهضة ، ويعمل على الحط منها»(٢١).

ماهو هذا التفكير القومي وما طبيعته ؟. ان صلاح الدين يحدد ذلك، دون ان يكون معنياً بالإجابة عن السؤال ، انه:

- يشير من الناحية الفلسفية دائماً الى لوك وهيغو وروسو وفولتير ، وكانط وفيختي وتولستوي .ويكتب مرة :«اين نحن اليوم من أمثال هيغو وصاحبيه فولتير وروسو ، يلقون في شوارعنا ما ألقاه اولئك منذ سنين في شوارع باريس، وفي حفلاتها الخاصة والعامة ؟»(٢٢). هذا على صعيد الفلسفة . وهو هنا مع الثورة البريطانية وفلاسفتها ، والثورة الفرنسية وفلاسفتها(٢٣).

- وهو من الناحية الواقعية يتمثل بنهضة البلغار واليونانيين والاتراك، ويتحدث عن الوحدة الالمانية والايطالية والامريكية. ويتمنى ان يكون مصيرنا نحن العرب مصير هؤلاء(٢٤). وهو ايضاً يستشهد بنابليون الذي«...قلما تلد العصور قائداً جاهد في سبيل العلم وتأييد الشورى » مثله(٢٥)، كما يستشهد بفردريك الكبير وغليوم الكبير وبسمارك و...(٢٦) وهذا كله يحدد هوية الدعوة القومية التي يدعو اليها.

إنها بوضوح قومية أوروبا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والوحدة الالمانية مثل «باهر» لوحدات القرن التاسع عشر.

الامة واللغة :اهتم صلاح الدين القاسمي بالعلاقة بين الامة واللغة ، وبينما لم يعتبر اديب اسحق اللغة شرطاً من شروط تكون الامة(٢٧)، فإن القاسمي يرى ان هناك علاقة بين الأمة ولغتها، «ولا بدع فاللغة من الذرائع الكافلة لتقويم الحياة القومية».ولهذا: «فليس ادعى لابادة حياة الامة، وانزالها منزلة من كتب عليهم ان يكونوا محكومين أبد الدهر، فضربت عليهم الذلة والمسكنة من السعي وراء اماتة لغتها التي يتفاهم بها ابناؤها»(٢٨).

ومن هنا يربط القاسمي بين إصلاح اللغة وإصلاح حالة الامة (٢٩). ولكن القاسمي لايناقش موضوعة الأمة واللغة، ولا يؤكد صراحة على أن اللغة شرط من شروط وجود الامة، لأنه لم يحاول ولا مرة واحدة ان يحدد تعريف الأمة وعوامل تكوينها.

الثورة الفرنسية : يتبنى القاسمي الثورة الفرنسية ، كما تبناها أديب اسحق. وهو إذا كان يذكر فلاسفتها في مقالاته المتفرقة، فإنه قد كرس لها بحثاً من أهم بحوثه نشر ناقصاً في آثاره (٣٠). ويتبنى القاسمي شعارات الثورة الفرنسية : الحرية و العدل والمساواة(٣١) ويربط القاسمي الثورة الفرنسية بالثورة الانكليزية، ويشير الى أثر الثورة الانكليزية في المفكرين الفرنسيين الأحرار.

ويستهدف القاسمي من كل حديث عن الثورة الفرنسية ان يؤكد ان الوعي السياسي ضروري لقيام الدستور على أساس مكين :«اذ لاخير في انقلاب سياسي لا يسبقه انقلاب أدبي في العقول والافكار»(٣٢).ويمكن ان نبحث ضمن هذا السياق دعوته المتكررة الى ضرورة الاتجاه نحو العلم . والعلم بالنسبة له يشمل العلوم الطبيعية والاجتماعية، ذلك ان «التقدم الذي نراه» من وجهة نظره «هو نتيجة تأثير كل من العلماء والاجتماعيين الذين وصلوا بالجمعية البشرية الى هذا الحد ...»(٣٣). ولهذا فهو يطالب بالاستمساك بالواجبات العلمية ولاجتماعية، ويطالب بأن يكون بيننا علماء وأطباء وشعراء وخطباء، وأن :«نأخذ بيد الصحافة، ونعضدها بكل مافينا من القوى المادية والأدبية، لأنها رسول العلم بين الأمم، وقائد الاجتماع الى مافيه الخير والنجاح».كما«ان نسعى لقلب هيئة التمثيل ،وان نقويه، ونذكر نهضة فرنسا ايام قام روائيوها يملأون الصحف بتلك الافكار الحرة ويطئون ساحات التمثيل ، فيمثلون للامم الشورى، واستبداد الملكية مما خلد لفولتير ، وروسو، وهيغو أسماء كبيرة على صفحات التاريخ في مستقبل الايام» (٣٤).

ويتبنى القاسمي في ميدان العلوم الاجتماعية فلسفة النشوء والارتقاء (٣٥)، ويذكر أنهم قرروا ان يطبعوا كتاب جول سيمون المعنون : الحرية (٣٦).

الموقف من الدين : اختار القاسمي القومية بديلاً عن العصبية الدينية لتكوين طريق العلم والتحديث .

وهو يشير في مقدمة دراسته عن المنفلوطي إلى :«الصراع الدائم بين القديم والحديث...»(٣٧). ويطالب بالتحرر من المؤثرات الدينية وغيرها عند النظر الى المدنية الغربية. ولكنه يعود في حديثه عن التضحية بالنفس ليؤكد: «...أن الوسائل لبث هذا الشعور جمة :وقد كان ولايزال من أهمها الاديان. وقد كفل ديننا ذلك ، فلابد من تعهده وتنميته ليبلغ من نفوسنا مبلغ الكمال»(٣٨). وبينما يشير في حديثه عن الثورة الفرنسية الى العلاقة بين الحكومة المطلقة والكنيسة (٣٩)، فإنه لايشير الى ذلك فيما يتعلق بالوضع في الامبراطورية العثمانية. ويكتفي ببعض الاشارات هنا وهناك، كنقده نشاطات الجمعية الاسلامية المعروف رئيسها «بتفريق الكلمة بين الامة العربية: مسلميها

ومسيحييها...»(٤٠)، وإشارته لما يلاقيه المصلحون «من شيوخ السوء حشوية الدين الجامدين ...»(٤١).

إن مفكرينا الأوائل وقفوا هنا، يدعون الى أفكار الثورة الفرنسية بشكل عام ، ويتحدثون عن الحرية والعدالة والمساواة، ويطالبون بنقل الفكر العلمي . غير أنهم لم يستطيعوا في ميدان الدين ان يطرحوا شيئاً غير محاربة التزمت والجمود . وكان ما تبنوه في هذه المرحلة، وما عدا نفراً قليلاً مثل الشميل ، لايتعدى الاصلاح الديني.

هل قرأ القاسمي نجيب عازوري: ليس لدينا إجابة محددة عن ذلك ، وإن كان ذلك غير مستبعد . ان القاسمي يقرأ الفرنسية، وكتاب عازوري كتب بالفرنسية، والقاسمي بدأ يكتب عن الامة العربية، بعد سنة ١٩٠٤، أي بعد صدور كتاب عازوري . غير أنه ليس هناك دلالات في هذا المجال . وهناك إشارة في كتاب مصطفى الشهابي الذي أشرنا اليه في هوامش هذه الدراسة تقول : إن عازوري لم يترك أي أثر .ويضيف :«وانا على يقين من أن كتاب عازوري لم يكن عند أحد من شباب جمعية النهضة العربية ،ولا عند أحد ممن الفوا، عقب إعلان الدستور العثماني، الجمعيات والمؤسسات القومية العربية المختلفة . وفي سنة ١٩١١ وجدته يباع في إحدى مكتبات باريس فاشتريته، ودللت بعض الرفاق من الطلاب العرب عليه ، فلم يهتموا به، لأنهم كانوا قد شبوا عن الطوق ،وعرفوا من شؤون القومية العربية وواجباتهم فيها مالم يعرفه غيرهم»(٤٢).ولانظن ذلك دقيقاً، لأن كتاب عازوري، والبيان الذي أصدره ، ومجلته الاستقلال العربي ، لابد من ان تكون وجدت صدى في بعض الاوساط المثقفة العربية. وهذا ماسنحاول البحث عنه.

الهوامش

١- فلاديمير لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث (موسكو : دار التقدم، ١٩٧١)، ص٣٧٤ -٤١٢، وعبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤)، تقديم أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة :دار المعارف ، ١٩٦٩).

٢- محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية، تحقيق وتقديم ظافر القاسمي، ٢ج (باريس: موتون،١٩٦٠)، ج١، ص٨-١٠، ج٢، ص١٩١-١٩٢، ١٩٤ - ١٩٨ و٢٠٣.

٣-د. صلاح الدين القاسمي : آثاره .قدّم له وحققه : محي الدين الخطيب .المطبعة السلفيه ١٩٥٩.

٤- د. صلاح الدين القاسمي : المرجع السابق ،ص٤.

٥-منير موسى: الفكر العربي في العصر الحديث، سوريا ، من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨(بيروت:دار الحقيقة، ١٩٧٣) ، ص ١٩٤-١٩٦.

٦- محمد يوسف نجم: العوامل الفاعلة في تكوين الفكر العربي الحديث: الجامعة الامريكية في بيروت، هيئة الدراسات العربية ،الفكر العربي في مائة سنة، أشرف على تحريره فؤاد صروف، ونبيه أمين فارس(بيروت : الجامعة الاميركية -١٩٦٧) ، ص٢٣-٨١.

٧- حازم زكي نسيبة: القومية العربية، فكرتها- نشأتها -تطورها، ترجمة عبد اللطيف شرارة.(بيروت :دار بيروت للطباعة والنشر،١٩٥٩) ، ص٤٩.

٨- مصطفى الشهابي: القومية العربية، تاريخها، قوامها، ومراميها، ط٢(القاهرة :جامعة الدول العربية، معهد البحوث الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٩)، ص٥٨.

٩- مصطفى الشهابي: المرجع السابق ، ص ٥٢-٥٦.

١٠- د. صلاح الدين القاسمي : المرجع السابق ،ص٧٢.

١١-القاسمي :المرجع السابق ، ص١١٨.

١٢- القاسمي :المرجع السابق ، ص٥.

١٣- القاسمي :المرجع السابق ، ص٥.

١٤- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٥ و٣٤.

١٥- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٨٠.

١٦- القاسمي :المرجع السابق ، ص ١٢٦.

١٧- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢١١.

١٨- القاسمي :المرجع السابق ه، ص ٢٠٨.

١٩- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٧٥.

٢٠- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٠٦.

٢١- القاسمي :المرجع السابق ص ٢٣٠- ٢٣١.

٢٢- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٦٧-٧٨.

٢٣- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٨-٤٩.

٢٤- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٣.

٢٥- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٧٩.

٢٦- القاسمي :المرجع السابق ، ص ١٠٢.

٢٧-أديب اسحق: الكتابات السياسية والاجتماعية، جمع وتقديم ناجي علوش، (بيروت :دار الطليعة،١٩٧٨)،المقدمة.

٢٨-صلاح الدين القاسمي :المرجع السابق،ص٤٥

٢٩- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٧.

٣٠- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٨-٥٧.

٣١- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٠.

٣٢- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٥٦.

٣٣- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٨-٥٧.

٣٤- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٣٤-٣٥.

٣٥- القاسمي :المرجع السابق ، ص ١٧-٢١٦.

٣٦- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٧.

٣٧- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٢٠.

٣٨- القاسمي :المرجع السابق ، ص ١١٧.

٣٩- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٤٩.

٤٠- القاسمي :المرجع السابق ، ص ٢٠٦.

٤١- القاسمي :المرجع السابق ص ٣٥١.

٤٢-الشهابي، القومية العربية : تاريخها ، قوامها ومراميها، ص٥٩.

الفصل الثالث

الوحدة في فكر ياسين الحافظ

أ. ناجي علوش

— ١ —

ياسين الحافظ مناضل ومفكر وحدوي معروف ، في إطار المثقفين المسيسين العرب ، وفي الأوساط النضالية العربية ، وخاصة في المشرق.

ولكن إلى أية درجة عُرف ياسين الحافظ ؟، وإلى أية درجة دُرس ؟، وماذا كانت تعني الوحدة العربية في فكر هذا المناضل القومي ؟.

إن الإجابة تحتاج إلى وقفة . لأن ياسين ، وهو مناضل سياسي بارز، منذ بداية الستينيات ، حتى وفاته ،أواخر سنة ١٩٧٨، لم ينل حقه من الدراسة بعد. ولأن ياسين ، وهو بالاضافة إلى نضاله السياسي ، كان أكثر بروزاً في ميدان التثقيف السياسي ، والتنظير السياسي. ومع ذلك ، فإنه لم ينل حظه من المناقشة النظرية .

وياسين ، بالاضافة إلى هذا وذاك، مناضل ومنظر قومي ، يمثل مدرسة جديدة في الفكر القومي ، حاولت أن تتجاوز المدارس القومية التقليدية والرومانسية، وأن تتخطى اليسار الماركسي ، الذي تبنى أممية لا ترى الحدود القومية، وقُطرية تتجاهل الوجود القومي. وهذا ما تبرزه كتابات ياسين الحافظ كلها. ورغم ذلك، فإننا لم نلمس اهتماما بتراثه عند الدارسين .

ولو أخذنا أبرز المعالجات التي صدرت في السنوات الاخيرة ، عن الفكر القومي ، لما وجدنا حتى اشارة لياسين الحافظ(١) . فلماذا حدث ذلك ؟.

هنالك أسباب عدة ، ابرزها :

أولاً : أن ياسين ، أخذ يمد في مرحلة جزر المشروع القومي الوحدوي. ولقد شهد مدُّ ياسين الحافظ الضربات المعادية المتتالية ، من هزيمة حزيران ١٩٦٧، إلى زيارة السادات القدس ، واتفاقيتي كمب ديفيد ١٩٧٧-١٩٧٨ .

وتتالت ، بعد وفاة ياسين ، أواخر ١٩٧٨ ، التراجعات في كل الميادين ، من غزو لبنان سنة ١٩٨٢ ، إلى غزو الجزيرة العربية والعراق ، سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١.

ورافق ذلك :

١ - اتجاه رسمي قطري ، يكرس الحدود ، ويجعل من حدود التقسيم الامبريالي حدود أمم. ومن الطبيعي أن يكون هذا الاتجاه ضد المشروع القومي الوحدوي ، وأن يعمل على تثبيت الحدود القائمة ، وإيجاد مرتكزات إيديولوجية وثقافية وسياسية واجتماعية لها .

٢- اتجاه ديني ، يبشر بدولة فوق قومية ، ويعتبرالقومية العربية مؤامرة امبريالية وحركة تغريبية .

٣ - اتجاه طائفي ، يسعى للتفتيت ، ما وسعه ذلك ، تحت شعارات مختلفة ، وبمبررات متعددة .

٤ - اتجاه استسلامي ، يتكيف مع السياسات الدولية ، ويربط الاقتصاد والسياسة بمراكز القرار الدولي ، ولا يرى غرابة في التدخل الدولي بقضايا الوطن. وحين لا تهرع الدول الكبرى للتدخل ، يطالبها هذا الاتجاه بالتدخل . وحين تتدخل ، وتسيء التدخل ، لا يرفض تدخلها ، كما حدث ، منذ ١٩١٨ حتى الآن ، ومن قرارات عصبة الأمم ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى قرارات مجلس الأمن، بعد الحرب العالمية الثالثة في الخليج .

ثانياً : أن ياسين ، حاول أن يجسد ، منذ بدايات هذا التراجع ، إرادة التحدي القومي الديمقراطي ، وطرح ضرورة هذا التحدي . ولذلك فإن ياسين كان يجدف في مواجهة تيار جارف ، لأنه كان يرى: «ان سياسة قومية حديثة ، هي وحدها التي يمكن أن تنجز عملاً تاريخياً ينقض او يوقف هذه السيرورة التقهقرية الانحدارية التي انخرطت فيها معظم ، ان لم نقل كل الشعوب العربية ، ثم يقلبها في اتجاه تقدمي صاعد »(٢) .

وكان ياسين يرى أن : « الحديث عن الوحدة العربية ، قد يبدو أشبه بمفارقة»، «في مناخ الاستنقاع الاقليمي الراهن »، كما كتب سنة ١٩٧٤ . والوحدوي، كما يقول ياسين : «الذي يملك نظرة واقعية ثورية ، لا يسعه إنكار الهزيمة أولا : ولا يسعه إلا أن يأخذها بالاعتبار ثانيا ». ولكن الهزيمة ، كما يرى ليست هزيمة الوحدة فقط ، لا هي »هزيمة أشمل« ، انها :

«هزيمة حركة الثورة العربية بوجه عام ». ويضيف : «وهذا يعني أنه عندما تنفض الثورة العربية غبار الهزيمة ، ستنفض الحركة الوحدوية ، هي أيضاً ، غبار الهزيمة ، وستستعيد مواقعها وتتقدم »(٣) .

ثالثا : ان ياسين الحافظ اتخذ موقفاً نقدياً، لا من الانظمة والسلطة ، بل من الاحزاب ، ومن المجتمع كله. ولقد انتقد ياسين الهزيمة ، بعد حزيران ١٩٦٧، وحاول ان يقدم «نقدا معمقا »، و«الذهاب ، ربما ولاول مرة ، من نقد السياسة ، إلى نقد المجتمع في تفسير هذه الهزيمة ». ولذلك ، فقد كتب ياسين في مقدمة كتابه : «الهزيمة والايديولوجية المهزومة »، «آمل ان يخدم هذا الكتاب في تنمية الوعي بالاسباب العميقة (الايديولوجية ، السوسيولوجية ، الاقتصادية ، السياسية) التي ولدت الهزيمة »(٤) .

إن هذه الروح النقدية ، كانت أيضاً خارج الخط الاستسلامي الامتثالي الذي تفرضه الأنظمة الحاكمة ، والقوى الاستسلامية الرسمية ، وغير الرسمية .

رابعاً : إن ياسين الحافظ ، كان يرى الثورة الديمقراطية بَدْوَة في المشروع القومي. المشروع القومي، بالنسبة لياسين مشروع ديمقراطي . ولقد فشل المشروع القومي ، لأنه لم يكن مشروعاً ديمقراطياً . فالديمقراطية طريق الوحدة، وهناك : «تلاحم وتكامل بين المشروع الديمقراطي والمشروع الوحدوي »(٥).

وبهذا كله ، كان ياسين غائباً عن الندوات وصفحات المجلات في العقد الماضي، وإن كان قراؤه يزيدون.

وزاد من تعقيد المشكلة ، أن الحركة العربية القومية ، كانت، خلال هذه المرحلة، تتفتت وتتراجع ، وأن الاتجاهات التقليدية والمحافظة غلبت عليها ، محاولة أن تجعلنا نكتفي بساطع الحصري ، أو أن تدعونا إلى ربط القومية العربية بالاسلام، وكفى الله المؤمنين شر القتال. وياسين في ذلك علماني ، يرى ضرورة الفصل بين الدين والدولة .

ويرى أن الانتلجنسيا العربية : «اختارت الاصالة والتقليد، فعجزت عن الدفاع عن وجود الأمة ، بل تجديده ووضعه في العصر» على نقيض الأنتلجنسيا الفياتنامية (٦) .

وهكذا يجد الباحث منا ياسين الحافظ ، كما هو ، ويعود إليه في مقالاته ودراساته وكتبه التي نشرت في حياته ، وبعد وفاته . ولا يجد مادة أخرى يعود اليها، لتساعده في الفهم والتحليل ، واكتشاف الأبعاد الفكرية لمشروع ياسين الحافظ السياسي والاجتماعي.

ومن هذا الخلاء ستكون بدايتنا .

—٢—

والآن ، ماذا كانت تعني الوحدة العربية عند ياسين الحافظ ؟ .

الوحدة العربية ، لدى ياسين الحافظ ، ليست موضوعاً يتحدث فيه ، إلى جانب مواضيع أخرى، ولا هي مشكلة تبحث في مكان ، أو تاريخ ، ليبحث غيرها في مكان آخر . إنها الموضوع الذي تجده أينما قرأت ياسين ، وفي أي موضوع كتب . لأن الوحدة بالنسبة لياسين ، هي شرط أولي «للبقاء العربي والتحرر العربي» ، وعلى المستوى عينه «شرط أولي للتقدم العربي» (٧) .

وما دامت الوحدة شرطاً للبقاء والتحرر والتقدم ، فإنها ، يجب أن توضع في محور عملنا الاستراتيجي. فعن اية وحدة، يتحدث ياسين الحافظ؟ وما الفرق بينه وبين المفكرين القوميين السابقين واللاحقين؟ (٨).

إن ياسين هنا ، لم يبحث موضوع الوحدة ، كما بحثها ساطع الحصري ، من حيث إثبات وجود الأمة، ودراسة عوامل تكوينها ، ومقارنة ذلك بالأمم الأخرى . لأن ياسين منطلق من أن الامة موجودة ، ويتحدث عن ضرورة الوحدة، وكيف يمكن أن تتحقق ، ولماذا تفشل المساعي الوحدوية .

ولذلك يطرح ياسين على نفسه هذا السؤال : «كيف يمكن للسيرورة الوحدوية أن تنطلق وتذلل العقبات»(٩) .

ولا نبالغ إذا قلنا :إن كل كتابات ياسين تحاول الاجابة على هذا السؤال .

وفي الاجابة على هذا السؤال ، حاول ياسين أن يوضح أسباب الفشل في المسيرة الوحدوية ، كما حاول أن يبين طريق النجاح .

وكان ياسين يرى أن هناك عوامل نابذة للوحدة ، وأخرى جاذبة .

أما العوامل النابذة ، فهي :

١ – أن التأخر العربي، هو «العامل الأول النابذ في السيرورة الوحدوية». ويتجلى التأخر :« أولا ، سياسياً ، في إلغاء دور الشعب ، ويتجلى ثانياً ايديولوجياً في كون الوعي العربي وعياً مفوتاً وقاصراً عن متطلبات التقدم العربي ، ويتجلى ثالثاً ، اقتصادياً ، في كون الاقتصاد العربي اقتصاداً متأخراً، مندلقاً ، وتابعاً للاقتصاد الامبريالي». ولا يرى ياسين الحافظ أفقاً لتطور «اقتصادي عربي مستقل »، رغم «طوفان المداخيل النفطية». وعليه فإنه يرى أن : «احتمالات بقاء التأخر العربي ، بل تقدم هذا التخلف لا تبدو غير واردة ».

٢ – إن الهيمنة الامبريالية ، هي : «العامل الثاني النابذ في السيرورة الوحدوية». وهذه الهيمنة ، تحاول : «ممارسة ضرب من التجميد للاحتمالات الوحدوية السياسية». وهذا ما يؤكده ياسين باستمرار .

٣ – إن : « واقع التجزئة والمقاومة التي يبديها »، هو«العامل الثالث النابذ في السيرورة الوحدوية» .

٤ – إن «الايديولوجيات الضمنية أو الصريحة للأقليات الدينية والقومية في الوطن العربي» هي :«العامل الرابع النابذ في السيرورة الوحدوية »(١٠) .

ويلاحظ هنا أن ياسين يعطي التأخر العربي الأولوية ، من بين هذه العوامل، ويؤكد على ذلك في أكثر من مناسبة (١١) .

ونحن نرى أن هذا الأمر بحاجة إلى مناقشة ، وأن موضوع التأخر ، لا ينفصل عن موضوع الهيمنة ، وأن الامبريالية عامة ، والأميركية خاصة ، هي التي تلعب الدور الرئيسي في تكريس التأخر ، وفي منع الوحدة (١٢) .

ومقابل هذه العوامل النابذة ، هناك عوامل جاذبة ، تتلخص فيما يلي :

١ – العامل :«الاول هو شعور هؤلاء البشر المنتشرين من الخليج إلى المحيط ، بأنهم ينتمون إلى أمة واحدة ، ويجمعهم مصير مشترك ».

٢ – العامل : «الثاني الجاذب»، هو : «مفاعيل الهيمنة الامبريالية ، وضغوطها ونهبها للشعب العربي ، فضلاً عن زحوف أو تهديدات عدد من الدول القائمة على أطراف الوطن العربي ،وفي قلبه» . ويشير هنا ياسين دائماً إلى الكيان الصهيوني من جهة ، وإلى إيران وتركية والحبشة من جهة ثانية.

٣ – العامل «الثالث الجاذب» ، « يتمثل في النزوع العربي إلى التقدم، إلى دخول العصر، إلى تأكيد الذات »(١٣) .

ولما كانت الوحدة العربية ،«تشكل مفتاح عملية إعادة تأكيد الذات القومية»(١٤)، كما يرى ياسين ، بات تحقيقها المهمة الراهنة التي تتطلب النضال الطويل ، لأن الوحدة لا تتحقق دون هذا النضال .

وكان ياسين يرد على الذين يعتقدون أن تحقيق الوحدة سهل وميسور قائلاً :

«من قال أن حركة الوحدة، ينبغي أن تنجح في ثلاثة عقود أو أربعة » (١٥) ولكن كيف تتحق هذه الوحدة ؟.

هنا حاول ياسين أن يحدد ، وفي أكثر من مناسبة ، وبأكثر من أسلوب ، ولكنه، وفي كل هذه الحالات ، شدد على مايلي :

أولاً : الحاجة إلى طليعة وحدوية. وهنا يتحدث ياسين عن الحزب الذي: «يشكل طليعة فعلية للشعب ، ويملك أيديولوجيا حديثة »، باعتبار أن وجود هذا الحزب ضروري ليفرض : «منطقه ووعيه على انتلجنسيا بلده»(١٦).

ويصر ياسين على ضرورة وجود إنتلجنسيا . لا لأن الأنتلجنسيا قادرة وحدها، ولكن لأنها ضرورية لتوليد الوعي. وتنبع الحتمية الوحدوية : «اذا لم تواجه بعرقلات أخرى ، من وعي أجزاء الأمة ضرورة وفائدة الوحدة ، فضلاً عن الارادة»(١٧) ولذلك فان ياسين ، كثيراً ما ينتقد قصور الوعي ، وهو يتحدث عن هزائم المشروع الوحدوي (١٨) .

ولذلك ، فإن ياسين كان يرى أن هناك دوراً حاسماً للأنتلجنسيا(١٩) . ولكن هذا الاهتمام بدور الأنتجلنسيا ، لم يكن ليجعله نخبوياً. فهو يرى أن إنجاز المشروع القومي ، بكل ما يتطلبة من ثورية وجذرية ، «لا يمكن أن ينجز على أكمل وجه ، بدون تسييس الشعب ، مهما بدا ، في بلد متأخر ، دورالطليعة أو النخبة أساسياً وأولياً » ... إن هذه العملية الكبرى ،تتطلب أولاً : « تسييس كتلة (= الأكثرية الساحقة) الأمة، وزرقها بسيكولوجية نضالية ، وتصفية روح العزوف السائد في صفوفها ، ويتطلب ثانياً الانتقال

بالشعب العربي ، من نمط مجتمعي مفوَّت ، إلى نمط مجتمعي عصري ، عبر نقلة راديكالية»(٢٠) .

«والسياسة تبدأ حيث الملايين » : بالنسبة لياسين ، الذي يؤكد ذلك بالعودة إلى لينين . ولذلك ينتقد ياسين «الهجوع السياسي الذي يسيطر على كتلة الامة»(٢١) .

ولكن ما دور الأنتجلنسيا تحديداً ؟ . وما هو دور الحزب ؟وما علاقة الحزب بالشعب ، وكيف يُسَيِّس الشعب ؟. إن الزمن لم يتح لياسين أن يسترسل في الأجوبة .

ثانياً : الحاجة إلى سياسة التغيير الراديكالي الذي يدعو إليه ياسين . وتقوم هذه السياسة ، في نظر ياسين على ثلاثة أركان :

الأول : هو الأمة ، وروح المواطنية ، واشتق هنا مصطلح الأموية ، أي القومية، ليعبر عن هذا المفهوم (٢٢) .

الثاني : هو بناء الديمقراطية .

الثالث : هو الوعي المطابق ، أي أن : «تملك هذه السياسات الوعي المناسب لحاجات تقدم الأمة العربية وتحررها ووحدتها ». وهذا الوعي هو : «وعي كوني ، في المستوى الأول، وفي المستوى الثاني وعي حديث ، وفي المستوى الثالث ، هو وعي تاريخي»(٢٣).

وفي سبيل بلورة هذا الوعي ، وانضاج هذه السياسة، أفنى ياسين عمره . دخل حزب البعث ، ثم انتقل إلى الحزب الشيوعي ، وما لبث أن أيد عبد الناصر ، ولكنه خرج من ذلك كله بنقد الفكر السياسي العربي ، والممارسة السياسية العربية، والدولة والمجتمع ، القيادات والجماهير ، وخرج بهذه الأفكار التي قدمها في مقالاته ودراساته ، والتي أعاد نشر معظمها في كتبه .

ويحاول ياسين أن يلخص تجربته في : «تاريخ وعي – أو سيرة ذاتيه إيديولوجية سياسية . » ولعل ابرز ما يؤكده في تأريخه وعيه ما يلي :

١ – أنه نبذ المعتقد القومي ، من حيث هو :«هذه الصياغة الايديولوجية السياسية للمشروع القومي العربي ، التي أبقت البنى المجتمعية – الثقافية – الايديولوجية، بمنجاة من التشكيك والنقد ، والتي تفتقر إلى وعي كوني تاريخي، كانت في التحليل الأخير ، وكما بدأت اكتشف ذلك في نهاية الستينيات، ضرباً من عملية تحديث للتقليد . ولذلك فقد نبذ المعتقد القومي، واحتفظ «بالأهداف القومية العربية »، كما يقول ، وعلى رأسها الوحدة .

٢ – أنه بتعرفه إلى الماركسية ، استطاع أن ينبذ «الشعور الماضوي للقومية العربية ، والوحدة العربية » ، وأن ينزع « عن الوحدة العربية القشرة الصوفية الرومنسية التي كساها بها المعتقد القومي العربي ». ورغم أنه تبنى الماركسية في العهد الستاليني ، فإنه يرى : «أن القاع العقلاني للماركسية ، في تناقضه غير المتصالح مع المعتقدية ، يلغم أساس المعتقد الايماني ، ويهيء امكانية لتجاوزه».

٣ – أنه ، ومن خلال هذا كله ، وقف مع المشروع الناصري : «كواحد من هذه الأمة المقهورة ، المجزأة ، التي مشت وراء عبد الناصر ، ووضعت فيه ثقتها وأملها. كان طبيعياً أن أصغي إلى نبضها ». ويضيف ياسين : «نعم، كانت لي شكوك حول جدوى ومستقبل الثورة الناصرية ، إلا أنني لم أكن أسمح لنفسي أن أفقد الأمل في أن يتجاوز عبد الناصر نفسه ، ويجدد تجربته ، ناهيك عن أنني لم أكن قد توصلت بعد، إلى رؤية نقدية كلية وجذرية للمشروع الثوري الذي طرحه...»(٢٤) .

وهو هنا يعترف بقصور رؤيته للناصرية ، وغلبة مكونات وعية الأولى على موقفه منها ، وقبل أن يتبلور لديه هذا النقد .

–٣–

وبعد ذلك ، فإن من واجبنا ، أن نقدم بضعة استخلاصات وصلنا إليها ، من خلال قراءة ياسين الحافظ :

الأول : أن ياسين الحافظ دعا إلى مشروع قومي ثوري لتحقيق الوحدة . ولم يكن يرى الوحدة تتحقق بسواه . وإذا كان قد وقف مع المشروع الناصري، فلأنه رأى بعض الآفاق الثورية فيه ، ودون أن يرى المشروع الثوري الذي يدعو إليه راهناً.

وهذا المشروع الذي يدعو إليه ثوري ديمقراطي وشعبي ، دور الأنتلجنسيا فيه طليعي وتنويري ، ولكنه ليس الدور الأوحد ولا النخبوي .

ورغم أن ياسين كان ماركسياً ، إلا أنه كان يرى الثورة الديمقراطية بالمعنى البرجوازي، من جوهر الثورة القومية ، وأن التعدد وحقوق المواطنة ، وحقوق الأقليات من أركان هذه الثورة .

والمشروع القومي ، بالنسبة لياسين ، يتجه إلى الحاضر والمستقبل ، لا إلى الماضي. وهو مشروع الأمة ، لا مشروع نخبة ، أوطائفة ، أو فئة ، أو حزب. ولأن هذا المشروع كذلك ، فإنه يتحقق بالثورة والشعب ، الأكثرية الواسعة، لا بالانقلاب ، ولا بالقيادة المشخصة ، لأن شخصنة السلطة من العوامل النابذة للوحدة ، ولأن شخصنة السلطة يمكن :«أن تصبح عاملاً ايجابياً – او جاذباً في السيرورة الوحدوية ، لو أن ثمة احتمالاً لطريق بروسي إلى الوحدة العربية». وياسين لا ينفي الطريق البروسي نفياً مطلقاً، ولا ينظر :«لطريق ديمقراطي إلى الوحدة » بوصفه مطلقاً وقانوناً يحكم السيرورة الوحدوية ، وكل ما عداه يشكل خطأ أو محاولة لا جدوى منها :«بل يرى أن ديمقراطية الحياة السياسية العربية، تفتح أرحب السبل أمام المشروع الوحدوي ، وتتسق معه ، وتنضجه»(٢٥) .

وياسين يرى ضرورة الاقليم القاعدة ، ويتحدث عنه بأشكال مختلفة من «الكتلة المحور»، إلى ضرورة «وجود قطر مؤهل»، إلى ضرورة دور وحدوي مبادر اقتحامي ، يقول به بلد ، قطر (٢٦) .

ولكن هذا الدور ، يلعبه هذا الاقليم القاعدة ، ضمن إطار الخط السياسي الذي قدمناه سابقاً، وليس ضمن أي إطار آخر ، كالمشروع القومي التقليدي أو الرومنسي ، أو المشاريع الماركسية التقليدية .

الثاني : إن ياسين يرى هذا المشروع معادياً للامبريالية ، لا لأنه يتصادم مع الاحتلال، والقوى الرجعية الحاكمة وغير الحاكمة فقط ، بل لأن الامبريالية لا تقبله أيضاً ، وتعاديه وتحاربه وتعمل لتصفيته (٢٧) .

وكان ياسين يرى أن معاداة الامبريالية ركن أساس في كل مشروع قومي، عربي ، وأن هذه السمة من سمات المشروع الذي يجب أن يؤيد (٢٨) . ولذلك أيَّد ياسين مشروع عبد الناصر كما ذكرنا (٢٩) .

والامبريالية ، بمقدار ما تحارب الوحدة ، وتعمل على اغتيال المشروع الوحدوي تدفعنا إلى الوحدة .

وقوة المشروع الوحدوي ، من قوة الثورة ، وقوى القطرية والاقليمية من قوى الهيمنة الامبريالية (٣٠) .

الثالث : أن ياسين استشرف المرحلة الشخبوطية (٣١) . ولم تكن عندما توفي ، سنة ١٩٧٨ ، إلا احتمالاً راجحاً ، من بين احتمالات . ولقد انتصرت الشخبوطية الآن انتصاراً كبيراً ، بكل ما تعنيه ، من ارتباط بالامبريالية ، وتكريس للقطرية والطائفية ، وتبنٍ للتخلف والتبعية ، وانتصار لشيوخ النفط وامراء الخليج والجزيرة، وعودة الهيمنة الامبريالية بشكلها التقليدي .

الرابعة : أن ياسين ، كان معنيا بالمشروع الديمقراطي ،ولكنه كان معنياً بما يسميه الانصهار القومي ، وبالتالي التمركز ، ويرى أن هذا كان طريق التقدم والديمقراطية في اوروبا . وهو ما جهلته او تجاهلته القوى السياسية العربية (٣٢) .

وهو يرى طريق الانصهار القومي والتمركز طريق الديمقراطية ، لا طريق التجزئة والتفتيت والتشرذم .

الخامسة : أن ياسين رأى التكامل الايديولوجي ، بين الاخوان المسلمين والقوماويين، او القوميين التقليديين . ومثل هذا التكامل ، هو الذي كان يجعل نظام عبد الناصر « يحصد الاخوان المسلمين سياسياً، في حين أن سياسته التعليمية والتربوية ، كانت تزرعهم ثقافياً وايديولوجياً » (٣٣) .

ولقد تطورهذا التكامل فيما بعد ، حين عاد الاتجاه التقليدي ، وغلب على الحركة القومية الرسمية ، وإلى حد الشعبية ، ليجعل من الاسلام إيديولوجيا القومية العربية . وترافق ذلك مع تصاعد المد الأصولي ، بعد الثورة الايرانية ، سنة ١٩٧٩ ، كما تواكب مع هزائم الحركة القومية، وتراجع احزابها وقواها سياسياً وفكرياً.

السادس : أن ياسين الحافظ رأى ضرورة إبعاد المشروع الثوري عن :«دائرة التنافس، أو الصراع الاميركي السوفياتي »(٣٤) . لأن هذا المشروع يجب أن يحفظ استقلاليته . وإذا كانت هذه الفكرة مرتبطة بمرحلة وجود معسكرين ، وصراع دولي حاد ، فانها اليوم أكثر ضرورة ، في عهد تفرد الهيمنة الاميركية .

والأساس في ذلك ، أن تكون الحركة حركتنا ، وأن تكون مستندة على قوة وعينا ، وقوة شعبنا ، لا على أي عامل خارجي .

وفي الوقت الذي عادى فيه ياسين الحافظ الامبريالية وثقافتها ، لم يخف الغرب، وأعلن عن علاقة حميمة مع ثقافته العلمية الثورية الديمقراطية (٣٥) .وعلى هذه الأسس ، بنى ياسين مشروعه القومي ، وهندس مشروع الوحدة . وكان دائماً يرى أنه مشروع سياسي ، وأن السياسة هي الأساس ، وليس الاقتصاد، أو الثقافة أو غير ذلك . ولذلك كثيراً ما شدَّد على أولوية السياسة (٣٦) .

والوطن العربي ، بالنسبة لياسين وطن وعالم ، ولذلك ترد كلمة العالم في كتاباته ، بلا تحفظ(٣٧) .وتشغله الاقليات، والبنى القطرية، واشكاليات التأخر والتشوه الناتج عن الاحتلال والتبعية، كما لم تشغل واحداً من المنظرين القوميين. غير ان ياسين يظل مع الوحدة.

من هذا كله ، اكتسب ياسين تفرده . لقد كان مدرسة ، وكان يجسد خط الوعي والنضال الشعبي الديمقراطي ، في وجه القمع المتصاعد ، والشخبوطية المتفاقمة .

وكان يجسد ذلك ، في وقت تتراجع فيه القوى القومية ، لا عن ثوريتها فحسب، بل وعن قوميتها أيضاً .

ونحن اليوم بحاجة إلى مشروع ياسين الحافظ ، أكثر مما كنا بحاجة إليه من قبل . لأننا نعيش في عهد الشخبوطية الذليلة المستأسدة ، ونتعرض لكل رياح التضليل السياسي ، ولكل أشكال الغزو السياسي والثقافي ، ولكل أنماط التسلط الرجعي القمعي والطغيان الشرقي والاضطهاد الامبريالي .

هل يعني هذا أن نتبنى نصوص المشروع القومي لدى ياسين الحافظ ؟. إننا ندعو إلى تبني خطه القومي الديمقراطي ، وإلى روحه العلمية النقدية ، وندعو أيضاً ، إلى تطويره ، عبر فهم تجربة العقد الذي مضى ، وعلى ضوء التطورات العربية والعالمية التي نعيش .

ونرى أن هذا كله ، يجب أن ينطلق من فهمه ونقده أساساً.

الهوامش :

١- يراجع مثلاً :

أ- د. ناصيف نصّار : تصورات الأمة المعاصرة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ١٩٨٦. لا اشارة لياسين الحافظ.

ب- عدد مجلة الفكر العربي، حول الفكر القومي العربي، نقد وتجديد: لا إشارة لياسين الحافظ.

ج- وتراجع اعداد مجلة الوحدة ١٩٨٤- ١٩٩١، هناك مقالة واحدة ، في العدد ٧ السنة الاولى. نيسان ١٩٨٥ بقلم د. رشيد شقير، بعنوان قراءة في المسألة القومية في فكر ياسين الحافظ، ص١٠٧.

٢- ياسين الحافظ : الهزيمة والايديولوجية المهزومة، الهيئة القومية للبحث العلمي، معهد الانماء العربي، سنة ١٩٩٠، ص(١٣-١٤).

٤- ياسين الحافظ : الهزيمة، مرجع سابق، ص٥ .

٥- ياسين الحافظ : في المسألة، مرجع سابق، ص٣٩، والهزيمة: مرجع سابق، ص ١١و١٨و٣٧.

٦- ياسين الحافظ : التجربة التاريخية الفياتنامية، دار الطليعة، ١٩٧٩. ص٨٣.

٧- ياسين الحافظ : في المسألة، مرجع سابق، ص١٨.

٨- ياسين الحافظ : في المسألة، مرجع سابق، ص١٥.

٩- ياسين الحافظ : في المسألة، مرجع سابق، ص٢٠-٢١.

١٠- ياسين الحافظ : في المسألة، مرجع سابق، ص٣٢-٣٧.

١١- ياسين الحافظ : في المسألة، مرجع سابق، ص١٧-٣٢.

١٢- ياسين الحافظ : الوحدة العربية، العوائق والمشكلات، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩١.

١٣- ياسين الحافظ : مرجع سابق، ص٢٦-٣٠.

١٤- ياسين الحافظ: مرجع سابق، ص٣٠.

١٥- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٥٨-٦٠.

١٦- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٥٨-٦٠.

١٧- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٢.

١٨- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٢، ٧٤، ٧٧، ٨٨، ٩٠.

١٩- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٣٥.

٢٠- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص١٨٥.

٢١- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص١٩٤.

٢٢- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص١٨٧-١٩٧.

٢٣- ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ص٧-٣٧.

٢٤- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ٣٨-٣٩.

٢٥- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ٥٥-٦١.

و ياسين الحافظ: الهزيمة، مرجع سابق، ١٨٥-١٩٤.

٢٦- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٧-٣٥-٧٨-٨٦-٨٨.

٢٧- ياسين الحافظ/ حول تجربة حزب البعث، الفكر السياسي، العدد ١، دار دمشق١٩٦٣، ص١٨٢.

٢٨- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٣.

٢٩- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٤٧.

٣٠- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٤٠-١٤١.

٣١- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٩١.

٣٢- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٤٢-١٤٣.

٣٣- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٣٩.

٣٤- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص٢٧-٣٠.

٣٥- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٨٧.

٣٦- ياسين الحافظ: في المسألة، مرجع سابق، ص١٢١.

العرب ومشروع الوحدة العربية

أ. ناجي علوش

-١-

لنعترف، بادي ذي بدء، أن مشروع الوحدة العربية الذي أطلق، منذ أواخر القرن الماضي، لم يتحقق.

ولنعترف أيضاً أننا اليوم، لسنا أمام مشروع جاهز، قابل للتنفيذ على الصعيدين النظري والعلمي.

ولنعترف، فوق ذلك، أننا اليوم أمام مخاطر الشرذمة، أكثر من أي وقت مضى لثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: تفرد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة العالمية، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وتوافر الظروف الملائمة لممارسة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية هيمنتها العالمية، وتطبيق سياستها في الشرذمة والتفكيك والتركيب، كما جرى في الاتحاد السوفياتي، وكما لا يزال يجري في يوغسلافيا، وأنحاء مختلفة من العالم

ويتضمن هذا البرنامج إثارة أوسع الصراعات لاستنزاف القوى، وتهديم البنى الاجتماعية والاقتصادية وبناء تجمعات اقتصادية «ما فوق قومية»(١). ومن ثم استخدام القوة لفرض السلام الأمريكي الذي يبرر استخدام القوة الامريكية، باسم الأمم المتحدة، وبحجة إنقاذ الآمنين، وإطعام الجياع. ولكن استخدام القوة، يُتبِع هذه البلدان، ويبقيها ممزقة، حتى ولو جرى الحديث عن عودة الدولة ..الخ.

الثاني: تخلخل النظام القطري العربي، نتيجة العجز الشامل الذي أكده في كل الميادين:

١- ففي ميدان التنمية، برز فشل تام لأن الاستيراد مازال يتسع، حتى في قضايا الغذاء، ولأن مستوى المعيشة ما زال يتدهور بالنسبة للأكثرية من الشعب؛ وتتعمق الآن أزمة المديونية، والأزمة الاقتصادية العامة، بسبب إسراف الفئات

الحاكمة وتبذيرها، وخلل برامجها الاقتصادية العامة، ونتيجة التزايد السكاني الكبير، وانخفاض أسعار الخامات.

٢- وفي ميدان الدفاع عن الوطن، أثبتت هذه الأنظمة أنها ضعيفة، أمام عدو مثل العدو الصهيوني، الذي استطاع أن يحتل الأرض، وأن يفرض الحل الذي يريد.

ويتفاقم الأمر، في هذا الميدان، منذ توقيع اتفاقيتي كمب ديفيد. وجاءت حرب الخليج (١٩٩٠- ١٩٩١)، لتكشف درجة الهشاشة والضعف، ولتثبت «استسلامية» النظام القطري العربي. وتأتي الآن اتفاقية غزة - أريحا لتخطو خطوات واسعة، نحو المزيد من الاستسلام العربي.

٣- وفي ميدان العلاقة، بين الأنظمة وجماهيرها تزداد العلاقات تدهوراً، نتيجة ما تمارسه هذه الأنظمة من قمع، وبسبب تمسك الفئات الحاكمة بمدأ اغتصاب السلطة، والاستخفاف بإرادة الشعب.

وهذا التخلخل، إذا ما نظرنا إليه، ضمن إطار السياسة الامبريالية عامة، والامريكية خاصة، وجدنا أنه يدفع إلى تفكيك هذه الأقطار، كما هي حالة مصر والجزائر والعراق والسودان، وكما هو مخطط بالنسبة لأي قطر عربي آخر، من سوريا إلى المغرب.

الثالث: تراجع القوى الوحدوية السياسية العربية الشعبية، في العقدين الماضيين، وتحولها إلى قوى ثانوية في الصراع الكبير.

ونحن الآن نعيش دون حركة عربية قومية موحدة، ودون حزب، يحظى بتأييد قومي واسع، خارج حدود قطره.

وفي هذا الوقت، تفرّخ الأنظمة القطرية أحزاباً وقوى قطرية، تكرس الواقع القطري، وتدافع عنه.

وأمام ذلك كله، يبدو الوضع العربي، أميل إلى التمزق والتشرذم.

فكيف سننظر إلى قضية الوحدة العربية؟.

-٢-

إن قضية الوحدة، في هذا الواقع، تبدو أكثر ضرورة من أي وقت مضى.

فهي، أولا، ضرورة لمواجهة مخاطر العدوان والمطامع الخارجية، وخاصة مخاطر العدوان الأمريكي والدول الامبريالية عامة، وإن كانت مطامع الولايات المتحدة الامريكية،

هي الأساس، لأن حكومة الولايات المتحدة، التي انتزعت القيادة العالمية، لديها برنامج محدد لهذه البقعة من العالم التي تضم الوطن العربي، وسائر أقطار الشرق الأوسط.

وتترافق مع هذه المطامع مطامع الحركة الصهيونية، وحكومة «إسرائيل» بالسيطرة على الوطن العربي، وخاصة بلاد الشام، ووادي الرافدين ووادي النيل.

وتأتي من جهة أخرى مطامع دولتي تركيا وإيران، لتزيد الطين بلّة، ولتفتح أبواب كل الاحتمالات الخطيرة.

وهي، ثانياً، ضرورة لوضع أساس تنمية اقتصادية، توفر حاجة المواطنين المتزايدة، وحاجات بناء دولة كبيرة وقوية، وتواجه مخاطر المجاعة والمديونية والتكاثر السكاني المتزايد.

وكلما اشتد العدوان، واتسع مدى الاستسلام، وتفاقمت الأزمة الاقتصادية، كلما طرحت قضية الوحدة حضورها، رغم كل محاولات البلبلة والتشتيت والشرذمة.

-٣-

ولكن هذا الشعور الذي يخامرنا، ونحن نرى ما نرى من عوامل الضعف والانقسام، ومخاطر العدوان والاستسلام، يواجه، بالإضافة إلى ما ذكرنا من عوائق، عوامل أخرى، ومن أبرزها إثنان:

الأول: فشل دعوات الوحدة السابقة، دون حاجة لمناقشة الأسباب. لأن توالي الفشل، لا يشجع على التفاؤل.

الثاني: غياب أية قوة تبدو مؤهلة، سواء كانت دولة أو حزباً. فقد حوصرت محاولة جمال عبد الناصر، ومحاولات حزب البعث في سوريا والعراق، كما ضربت محاولة محمد علي، في القرن الماضي. ونمت في ظل الجامعةالعربية، كل مقومات القطرية. ولم ينجح أي اتحاد ثنائي، أو تجمع إقليمي، في اختراق أسوار القطرية التي ترتفع.

ونمت بالمقابل اتجاهات ايديولوجية، تتخطى الوحدة القومية، كاتجاه الاستسلام السياسي الذي يعتبر القومية العربية مؤامرة استعمارية(٢)، أو اتجاه العدمية القومية Cosomoplitan الذي ينحو إلى عالمية، لا تستند إلى أساس قومي، ولا ترى غير عالم الشركات المتعددة الجنسيات.

وفي الواقع، أخذ التفتت يذر قرونه إثنياً وطائفياً ومذهبياً ودينياً، وها هو يأخذ أبعاده جهوياً.

وأمام ذلك كله، يبدو أن القومية عامة تغيب عن المسرح، وأن القومية العربية في طريقها إلى الزوال؛ وكأن الذين تحدثوا عن موت القومية العربية، قبل سنوات، كانوا يعرفون ما سيجري (٣).

فهل ننفض عقولنا، لنخرج منها القومية العربية؟.

وهل سنتحول إلى دول مناطق وطوائف واثنيات؟..

هذا ما يجب أن نناقشه.

—٤—

لنعترف مجددا، أننا، ونحن نرى مشروع الوحدة يواجه عقبات تتزايد وتتعقد، نرى وحدة الأقطار العربية الراهنة أمام مشروع تشرذم كبير. ويعود ذلك الى ثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: وجود مخطط دولي، ترعاه حكومة الولايات المتحدة لتفتيت العالم الثالث، وفي القلب منه الوطن العربي. وهذا المخطط، لا يستند الى تأجيج الصراعات الطائفية والمذهبية والاثنية فقط، بل يقوم الى جانب ذلك، على قاعدة: الحكومة المحلية ضد الحكومة القومية.

وهذه القاعدة، تستند الى أن دور الحكومة القومية انتهى، وأن دور الحكومة المحلية هو المطلوب (٤).

وبينما تفرز هذه الأطروحة روح التفتيت، باثارة كل النزاعات والمنافسات والمحلية، تضعف الاتجاه الى قيام الدولة الدينية، وتفسخ الاقطار التي تسكنها اكثرية موحدة قومياً ودينياً مثل مصر.

وهذا المخطط الامبريالي المطروح نظرياً، يجري تطبيقه عملياً، في انحاء العالم الثالث المختلفة. وها هو يطبق في الاتحاد السوفياتي السابق، ويوغسلافيا السابقة، وفي أنحاء مختلفة من آسيا وافريقيا.

وهدف هذا المخطط، كما بينا أكثر من مرة، تهديم بنى الدولة والمجتمع، واستنزاف الطاقات في حروب داخلية، وتحويل دول العالم الثالث إلى دويلات مقزمة، تتسول على أبواب الدول العظمى، وتفتح أبوابها لكل أنواع السلع، بلا حدود، وتصدر الخامات بأرخص الأسعار، حسب برنامج الشركات المتعددة الجنسيات(٥).

وفي مثل هذه الأجواء، يصبح مطمح بعض القادة الفلسطينيين إلى إقامة دويلة مقزمة في ظل الاحتلال الصهيوني، كما يصبح مطمع قادة البوليزاريو إقامة دولة مماثلة، في ظل الحماية الدولية، أو أية حماية ممكنة، إسهاماً في تنفيذ هذا المخطط الدولي. وهذا ما عزمت عليه «القوات اللبنانية يوماً» ، وما يسعى له بعض القادة الأكراد في شمال العراق، وبعض الطامحين في جنوب العراق. وسنرى مثل هؤلاء قريباً في الجزائر ومصر، وأنحاء الوطن العربي المختلفة. كما نرى أمثال هؤلاء في الهند، وأماكن من العالم.

الثاني : تخلخل النظام القطري العربي. لأن هذا النظام الذي حاول أن يجعل حدود الأقطار حدود أمم، وأن يقيم دولة على أساس التنافر مع دول الجوار، وأن يعبئ جماهيره بالولاء للأنظمة لا للأمة ولا للوطن، عجز في كل الميادين عن بناء أساس للدولة، لأنه:

١- حوّل الدولة، من دولة كفاف، تتلقى بعض المعونات، الى تبعية اقتصادية كاملة للنظام الرأسمالي العالمي.

٢- حول السلطة، من سلطة بدائية، الى دولة أجهزة القمع ، بلا مؤسسات وبلا قانون.

٣-اتجه الى سياسة اللعب بالتناقضات، ورعاية المؤسسات التقليدية الموروثة، من العهد العثماني والاستعماري ، والاعتماد على بعضها دون بعضها الآخر، بدلاً من أن يتجه الى سياسات الاندماج الاجتماعي التي لم يؤهل أساسا لها.

٤- استخف بالشعب وإرادة الشعب، وأحل مكانها إرادة الفئة الحاكمة.

وأدى ذلك الى اختلال كبير، بين ما هو محلي وما هو قومي، وما هو وطني وما هو تبعي، وما هو سلطوي وما هو شعبي.

أصبح القطري ضد القومي، والطائفي ضد القومي - الوطني ، وصارت التبعية أساس السياسة والاقتصاد، وصارت السلطة مجرد أداة قمع فاسدة.

وبينما نمت طبقات متسلطة في كل أركان الوطن، تدهورت حياة المواطنين الى درك المهانة والجوع.

ورغم ان كل سلطة استقوت على شعبها استقواء لا حدود له، كما هي الحال في كل مكان، كانت هذه السلطة تضعف في عيون شعبها، لأنها تعجز عن حل مشاكل الماء والغذاء والعمل، وتتنازل للأعداء عن الأرض والسيادة القومية، وتنهب الثروات وتبددها، وتختار أفسد الفاسدين، وأعجز العاجزين، ليكونوا رجالها وممثليها في كل الميادين.

ولما كان أفق التغيير مستحيلاً، عن الطريق الديموقراطي، وكان القمع يشتد، «والديمقراطية» تتحول الى أداة بيد الأنظمة القائمة لاستمرار قمعها ونهبها ، فان ذلك قاد الى ما يجري في مصر والجزائر، وسيقود الى تجارب مماثلة في أقطار أخرى. وإذا كنا قد واجهنا العنف القومي أو الماركسي في العقود ١٩٢٠ – ١٩٧٠، فقد بدأنا نشهد العنف الديني والطائفي والمحلي منذ ١٩٧٠.

وفي ظل هذا كله ظل الخلاص من الطغيان مطلب الجماهير الواسعة وأملها.

ولكن دول الأقطار التي لم تتقدم على طريق الوحدة القومية، لأنها ليست مؤهلة لذلك، بحكم طبيعتها وارتباطاتها، لم تعمل على بناء الدولة الديموقراطية للأسباب عينها، أخذت تسير بسرعة، على طريق التشرذم، أي الانقسام الى عناصرها الأولية.

وحيث تقوم الدولة بدور من أدوارها المطلوبة، أو حيث امتلكت نوعاً من القوة، فان حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، وحكومات الدول الرأسمالية تقوم بدور المولد القانوني للتشرذم والانقسام على أسس اثنية حقيقية او مصطنعة؛ وطائفية مفتعلة، وعلى أساس مشاريع سلطة بلا اساس، مثل البولساريو، او تغذية مطامح بلا مقومات، مثل مشروع الدولة الفلسطينية.

ان النظام القطري العربي، بعمله الدائب على تعقيد أزماته، وبهربه من الوحدة القومية والدولة المعاصرة، يُفَرِّخ صراعاته وتشرذماته، أو يورث قواه التقليدية التي غذاها ورباها، خشية القومي والجذري والمدني، بقايا سلطاته المتداعية.

ولكنه، وهو يحتضر، يفرخ قوى مقزمة اكثر شراسة وتخلفاً ونهباً، وأكثر انسجاماً مع تطلبات « النظام الدولي الجديد ».

الثالث: عجز الحركة القومية – الديمقراطية عن أداء دورها. فقد عجزت عن أن تكون قومية، بمعنى أنها عجزت عن أن تمثل إرادة الأمة العربية، وإرادة وحدتها، حتى ولو مثلت بعض النخبة، أو كانت حزباً، أو دولة. لأن تمثيل إرادة الأمة، يتطلب تجسيد مصالح الأمة كلها، والتعبير عن مطامحها، وامتلاك القدرة على ذلك نظرياً وعملياً. وهذا يشترط اندماج الثورة القومية بالثورة الديمقراطية نظرياً وعلمياً. كما يشترط اقتناع جماهير الشعب بخط الحركة القومية وسياساتها.

وإذا كنا قد رأينا إرهاصات ذلك مع جمال عبد الناصر، فإن هذه الارهاصات ما لبثت أن تبددت، بسبب القصور في برنامج جمال عبد الناصر، وبنية قيادته. ولم نر هذه الارهاصات الا مع التحدي العراقي للنظام القطري العربي وللهيمنة الامبريالية، سنة

١٩٩٠. الا أن هذه الارهاصات التي لم تعش طويلاً، ما لبثت أن تبددت، تاركة مرارة كبيرة وحلماً كبيراً لم يتحقق.

ونحن الآن، بلا حركة قومية شعبية وشاملة، وبلا حركة ديموقراطية، عميقة وشعبية، وبلا قوة مواجهة كبيرة. إن عجز الحركة القومية هذا، ساعد على تفاقم الدور الامبريالي، وسمح باستعادة القوى التقليدية (محلية وطائفية واثنية) من تخلخل النظام القطري، لأن النظام القطري أعدّها لهذا الدور، ولأن القوى الامبريالية الدولية، ساعدت في ذلك مساعدة كبرى، فهل يعني ذلك كله، من تفاقم الخطر الامبريالي، الى تفاقم مشاكل النظام القطري، ومن ازدياد مخاطر التشرذم الى عجز الحركة القومية، أن المستقبل صار ملك الامبريالية والتشرذم والهزيمة...؟!. وهل نحن في مرحلة موت الأمة العربية، لا في مرحلة انبعاثها، كما نعى النعاة؟.

—٥—

إننا لسنا من مرددي صرخات النعاة،. ورغم أننا نرى المخاطر تتراكم، نتيجة الأسباب التي ذكرنا، فإننا نرى أن هناك عوامل تدفع باتجاه الوحدة القومية، رغم كل عوامل الفرقة والتشرذم.

ويمكن إيجاز هذه العوامل بما يلي:

أولاً: إن التحدي الامبريالي الذي أخذ يهدد وجود الأمة، منذ بدايات القرن التاسع عشر، ما زال يهدد وجودها. وهو اليوم، ومنذ الهجوم الامبريالي الدولي على العراق، والحصار على ليبيا والسودان، يزيد المخاطر على وجود الأمة، ويعقد سبيل وحدتها وتقدمها.

إن هذا التحدي المصيري، لا يمكن أن يمر بدون مواجهة. واذا كانت المواجهة في الماضي قد فشلت أو قصّرت، رغم مستوى التضحيات وحجمها، فإن دروس الفشل الماضي، لا بد أن تعلمنا كيف نواجه الآن وفي المستقبل.

وهناك ما يؤكد أننا نتعلم، ولو ببطء، وأن مقاومتنا تتطور. والذي يدرس تاريخ المقاومة العربية من أحمد عرابي حتى الآن، يلمس مظاهر التطور فيها.

وهذا يعني أن مخطط سايكس- بيكو واجهته ثورات وانتفاضات وحركات سياسية. ورغم أنها لم تحبطه، فإنها كانت دروساً لمواجهة المخطط الجديد.

هذا يعني أن المخطط الجديد الذي يعرض كل وجود الأمة للخطر ، لا بد أن يواجه مقاومة أشد وأوسع، وأكثر جدارة بالنصر.

ويساعد على تفجر إرادة التحدي الشعبي بروز استعدادات الاستسلام لدى القيادات والقوى الحاكمة ،كما برز في اتفاق غزة – أريحا، وما رافق ذلك من انكشاف الاستعدادات الاستسلامية للنظام القطري العربي.

نحن، اذن، لسنا أمام عدوان امبريالي دولي واستعداد استسلامي لدى قيادات وأنظمة، فقط، بل نحن أيضا أمام إرادة تحد عربي شعبي، أثبتت دائماً، وفي مثل هذه الحالات ، استعداداً للمواجهة ، كما في الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر والسودان والجزيرة العربية والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان، خلال أكثر من مائة عام، وستثبت بما اكتسبته من خبرات، وبما تستشعره من خطورة التحديات، أنها ستتطور بما يجعلها قادرة على تحقيق أهدافها.

ثانيا: إن تحديات بناء المجتمع المدني، مثل نقص الغذاء والماء، وتناقص فرص العمل، والثورة السكانية المتدفقة، تفرض تجاوز المحلي والقطري، لأن القطري والمحلي لا يملكان حلاً. واذا كانت الثورة السكانية في الجزيرة، ونقص الماء والغذاء، قد قاد الى عدة هجرات، قبل الاسلام ادت الى قيام دول كبرى، فان الفائض السكاني في كل أنحاء الوطن، سيدفع باتجاه الوحدة، لأن فيها حلولاً لا تملك مثلها حدود الاقطار، ولا تعطي مثلها التجزئة الجديدة.

ان هذا التحدي الكبير، تحدي الكثرة السكانية والماء والغذاء والعمل، هو الذي دفع دوائر التخطيط السياسي والعسكري في الولايات المتحدة، الى البحث عن حلول لمواجهة هذه الاشكالات. وهو الذي قاد هذه الدوائر في السلطة الامريكية ، وفي مؤسسات كالبنك الدولي، الى دق ناقوس الخطر، واقتراح حلول تبدأ بدراسة سبل حل مشاكل التزايد السكاني السريع ، وتنتهي باستخدام سبيل المجاعات والحروب.

وترى هذه الدراسات أن الكثرة السكانية المتزايدة ، ستقود حتما الى أمرين:

الأول : إحداث تحول في الجغرافية السياسية العالمية، لمصلحة الدول ذات التزايد السكاني العالمي، وعلى حساب الدول المصنعة المتناقصة السكان.

الثاني: إحداث تحول عميق في بنية المجتمعات، ذات النمو السكاني العالي، يعيد بناء الدولة والمجتمع واستخدام الموارد، لمصلحة الأكثرية العاملة والجائعة.

وهو، ما يهدد ، في نظر هؤلاء المخططين، هيمنة الدول الامبريالية، لا في البلدان التابعة فقط، بل في بلدانها عينها، وما يهدد الفئات الحاكمة التابعة في البلدان المتخلفة.

ولذلك لابد من اختزال طاقة هذه الجماهير المتزايدة بالمجاعات والحروب، وإعادة تقسيم الدول الموحدة كالهند والصين والبرازيل ، ومنع الأمم التي فرضت عليها التجزئة من الوحدة، وبناء وحدات اقتصادية غير قومية، تتبع محاور رأس المال العالمي، مثل هونغ كونغ وسنغافورة الخ.

إن لهذا العامل دوره في استنهاض قوى المواجهة، وفي تطور وعي شعبي واسع، ينسجم مع مصالح أوسع الجماهير، بمقدار ما تخافه القوى المعادية.

ثالثاً: إن المجتمع العربي يعيش تحولات بنيوية نوعية، في ميادين عدة أبرزها:

أ- «العولمة» التي تعم البسيطة، والتي تخترق النسيج الاجتماعي في كل مكان؛ رغم أنها تعكس جوانب سلبية في ميادين عدة كالاستلاب والاستهلاك، فإنها تنقل الأطراف من أطراف معزولة الى أطراف مرتبطة بالتطور العلمي، بكل ما فيه، من ثقافات وخبرات متعددة ومتنوعة.

ب- التطور النوعي في التربية والثقافة والتعليم، رغم اضطراب برامج التربية والتعليم وتخلف الممارسة التربوية، وهيمنة أشكال من الثقافة المبتذلة والدعاوية الرخيصة على حياتنا.

ج - ازدياد عدد سكان المدن في كل أنحاء الوطن العربي، بما يجعل نسبتهم العامة حوالي خمسين بالمائة، وما يرافق ذلك من تطور اجتماعي.

د- تطور الاتصال بين الأقطار العربية، بسبب تطور وسائل الاتصال (إذاعة ، تلفزيون، هاتف) وتطور وسائل المواصلات ، وخاصة الطائرة والسيارة والباخرة، مما قاد الى التفاعل السياسي والاجتماعي والثقافي، رغم كل العوائق. وقد قاد ذلك الى زيادة التعارف، والى انتقال الخبرات، وانتقال لغة الخطاب السياسي والثقافي والوجداني الى مرحلة جديدة من التقارب والتشابه، بعد أن كانت اللهجات تنغلق وتتباعد.

وفي ذلك كله ما يساعد على تحقيق الوحدة، ويؤسس لحالة وحدوية، في ظل حرص السياسات القطرية على تأكيد وجودها.

فهل يمكن ان نعتبر ان هذا العوامل، وغيرها من العوامل المساعدة ، يمكن أن تكون وحدها كافية؟

-٦-

إن الاجابة على هذا السؤال، تتطلب أن نؤكد أولا أن الذاتي ابن الموضوعي، وأن الذاتي الذي لا يكون الموضوعي منطلقه، يتحول الى« «هلوسة»، أو أغنية ذاتية، قد تكون مؤثرة ، ولكنها لا تستطيع أن تتحول الى قوة تغيير.

وكل موضوعي لذلك يلد الذاتي الخاص به.

ولكن هناك فرقاً بين ذاتي وذاتي . فهناك ذاتي قاصر ومشوش ، وهناك ذاتي محدد وواضح.، وهناك ذاتي محدد نظرياً، لا يملك قواه، وهناك ذاتي محدد نظرياً ويملك قواه.

وكان عامل الوحدة العربية، منذ نهاية القرن الماضي غير محدد نظرياً، ولايملك قواه، ولذلك لم تتحقق الوحدة.

ومن المؤكد أن ذلك كانت له أسبابه الكبيرة والعميقة. ومن ذلك:

١- طبيعة القوى المعادية، أي الامبريالية أساساً، وتفوقها النظري والعلمي تفوقاً بلا حدود.

٢- طبيعة النظام العربي القائم على خريطة التقسيم الامبريالي، والمؤسس على التبعية.

٣- طبيعة النخب العربية القومية التي لم تكن تملك بحكم تخلف بنى المجتمع العربي، والأمية السائدة في صفوف الشعب، والتشتت بين السلفي والمعاصر، والديني والدنيوي ، المحافظة والاصلاح والتقدم، العلم والخرافة، والقانعة بدور على هامش الانظمة والطوائف والأحزاب والجمعيات والنقابات.

ولذلك، فإن الوحدة التي أكد الجمهور العربي الواسع التزامه بها، منذ ما يسمى عصر النهضة، حيث أتيح له أن يعبر عن رأيه، بحاجة الى أدواتها النظرية والعملية.

فعلى الصعيد النظري، إن العربي بحاجة الى ثلاثة أمور.

الأول : فكر قومي جديد يطرح كل قضايا القومية، وكل إشكالاتها، ويقدم للعربي فكراً قومياً يتجاوز، ما طرحه الكتاب القوميون، منذ ١٨٧٥ وما طرحته الأحزاب

القومية. ولنعترف أنه الفكر القومي، خلال المرحلة ١٨٧٥-١٩٩٦، لم يستطع أن يؤدي مهماته، لأنه تعاطى مع القضايا القومية تعاطياً سياسياً عابراً في معظم الأحيان. ومع أن هناك العديد من الكتاب القوميين، الا ان الذين نستطيع أن نعتبرهم منظرين، خلال كل هذه المرحلة الطويلة لا يتعدون أصابع اليد، وأبرزهم ساطع الحصري ومحمد عزة دروزة ود. نديم البيطار.

ولذلك، فنحن الآن بحاجة الى ثورة في الفكر القومي، تحلل قضاياه، وتدرس إشكالياته، وتُعمق دراسة أطروحاته، كما لم يحدث من قبل.

وهذا يتطلب:

أ- إعداد مراكز أبحاث ودراسات متخصصة، لتقوم بدورها في هذا المجال، مثل مركز دراسات الوحدة العربية، والمجلس القومي للثقافة العربية، تتعاون وتتنافس، لتغني الدراسات والأبحاث في كل الميادين.

ب- العمل على تحويل التربية والتعليم الى الخط القومي،رغم الصعوبات التي يفرضها النظام القطري، وتحويل المدارس والجامعات الى مراكز وعي قومي.

ج- العمل على بناء مراكز للموسيقى القومية ، والأغنية القومية، وكل ما يغذي الوجدان القومي.

د- العمل على تكوين مدارس مبدعة في الشعر القومي خاصة، والأدب القومي عامة.

إننا بحاجة الى دور الثقافة والوعي والفكر والموسيقى والشعر في اعادة الروح الى حركتنا القومية، وفي إغناء وجداننا، وتكوين قناعاتنا الحياتية والسياسية.

فهذا ما فعلته الحركات القومية في القرون الماضية، وهي تعيد بناء الوجود القومي في أوربا وآسيا. وقد زادت حاجتنا اليوم الى ذلك كله، بسبب زيادة مخاطر الهيمنة والاستلاب، وتفاقم إشكالات الكوسموبوليتية من جهة، والتشرذم من جهة أخرى.

وعلى الصعيد العملي، نحن بحاجة الى ما يلي:

١- أدوات سياسية قادرة على التخطيط والتنظيم والقيادة. وقد تضم هذه الأدوات حزباً أو أحزاباً، وحركة أو حركات، وجبهة واسعة الخ.

والمهم رغم اختلاف الأسماء، أن تمثل جبهة شعبية واسعة قومية وديموقراطية، فقد أثبتت تجارب الوطن العربي أن نجاح الجبهة أو الحركة الواسعة يرجح على نجاح الحزب النخبوي.

واذا كنّا خلال العقود الماضية ننجح عبر الحزب أو الحركة ، فإن علينا أن ندرس الأسباب، وأن نكتشف الأسلوب المقبول، شعبياً، والقادر على تحقيق المهمات المطروحة ، في هذه الظروف المعقدة.

ويمكن البدء على محورين:

الأول: بناء جبهة قومية متحدة، في كل قطر، وجبهة قومية متحدة على الصعيد القومي، على أساس برنامج قومي ديموقراطي شعبي؛ من الأحزاب السياسية القومية، ومن جماهير الشعب.

الثاني : البدء بتأسيس حركة شعبية واسعة قومية وديموقراطية، من الجماهير مباشرة، وبالطرق المناسبة.

الثالث: بناء رأي عام قومي عربي في كل أنحاء الوطن العربي، من خلال عمل واسع شامل، تقوم به حركة قومية شعبية، تمارس كل النشاط التعبوي في كل ميادين الحياة.

الرابع: بناء قوى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فيما يتعدى الحزب والحركة الخ...

وبذلك نبني القوى النظرية والعملية، نعبئ جماهير الشعب ونحشدها، ونتجاوز الهشاشة النظرية والعملية التي عرفناها، خلال أكثر من مائة عام.

وبناء قوى الوحدة النظرية والعملية هو الأساس في تحقيقها، مثل أي مشروع، ولقد عجزنا في الماضي، لا لوجود قوى معادية فقط، بل لقصورنا وفشلنا علمياً ونظرياً.

ورغم زيادة القوى المعادية قوة، فإن كل العوامل التي أشرت اليها، والتي اعتبرها ايجابية، اذا ما اقترنت بوضوح الفكر وحماسة الوجدان، والقدرة على التنظيم والعمل والبناء والمواجهة.

-٧-

استخلص من ذلك كله ما يلي:

أولا: إن قوى العدوان والشرذمة، بمقدار ما تخضع قوى عربية، تستنهض قوى. وكان التحدي المصيري، في كل تاريخ الأمة، يستنهض قوى كبرى، كما هي حال كل أمة في العالم. وبمقدار ما يكون الخنوع الداخلي، يطلق ذلك قوى مواجهة هائلة.

ثانيا: ان عوامل الوحدة تتراكم، تحت رماد التجزئة والشرذمة والهزيمة.

ثالثا: ان النهوض يحتاج الى تطور نوعي في العامل الذاتي، أي قوى المواجهة، المؤهلة نظرياً وعملياً. والواقع العربي الراهن، بكل تراكماته وتشابكاته، يقدم مكونات هذا التطور النوعي.

ولذلك، فإن القوى القومية النوعية مطالبة بأن تبدأ عملها النوعي، لإعادة بناء الحركة القومية. وبدء نضال قومي جديد شعبي وشامل وديموقراطي لتحقيق أهداف الأمة.

الهوامش

1- Keniche Ohmae : The Rise of The Region State, Foreign-Affairs, Spring 1993, P.P (78-87)

٢- ناجي علوش: القومية العربية والاسلام السياسي، مجلة اليسار، العدد الخامس، القاهرة.

٣- ناجي علوش: الوحدة العربية: العوائق والمشكلات. المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩١.

Keniche, Ohmae: Ibid.

٤- تحدث أكثر من كاتب أمريكي عن موت الأمة العربية. فكان من هؤلاء فؤاد عجمي الامريكي العربي الأصل. ويمكن مراجعة كتابه:

Fouad Ajami: The Arab Predicament., Cambridge University pres 1981.

وأما بالنسبة لموت الأمة العربية:

Willian R. Brown: The Dyiny Arab Nation. Foreign Policy. No. 54, Spring 1989.

-حول الشركات المتعددة الجنسيات، يراجع:

د. محمد السيد سعيد: الشركات عابرة القومية ومستقبل الظاهرة القومية، سلسلة عالم المعرفة رقم ١٠٧، ١٩٨٦، وخاصة، ص ١٥٦.

-Keniche, Ohmae : Ibid.

Keniche, Ohmae : The End of Nation State, The Free Press, 1995.

٥- ناجي علوش: الوطن العربي، الجغرافية الطبيعية والبشرية، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦.

الحركة العربية القومية في مائة عام

1875 - 1982

يسعى هذا الكتاب، إلى سد فراغ في المكتبة العربية، يتعلق بتطور الحركة العربية القومية.

ذلك أن الحركة العربية القومية ، ورغم الدور الذي كان منتظراً منها، ورغم ما واجهته من عداء القوى المعادية، ما زالت حتى الآن لا تجد الاهتمام الكافي من أبنائها ومؤيديها. ولذلك، فان تاريخها لم ينل ما يستحق من الدراسة، ومفكريها ما زالوا غير مدروسين جيداً، وقضاياها ما زالت غير مطروحة علمياً ومنهجياً.

وإذا راجعنا ما صدر من كتب عن تاريخ الحركة القومية، وعن قضاياها ومفكريها، وجدناه قليلاً وغير كاف. هذا بالاضافة الى أن ما صدر في حينه، اختفى من واجهات المكتبات، ولم يحتفظ به في كثير من المكتبات العامة. ويجد الدارس صعوبة في الحصول على المراجع الاساسية، في تاريخ الحركة القومية.

ولذلك خططنا لاصدار هذا الكتاب، ليسد بعض النقص الحاصل، وليضيف جديداً في المعلومات والاسلوب، حيث نستطيع.

وهذا الذي دعانا الى إشراك اكبر عدد من الباحثين في انجاز الكتاب، لتغطية أوسع مساحة ممكنة، ولتوظيف معارف وخبرات عديدة.

الناشر
دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان - الأردن
دار الشروق للنشر والتوزيع ، رام الله - فلسطين

□ تصميم الغلاف: محمد نصرالله□